مكتبة النيهوم
سلسلة الدراسات:(5)

الصادق النيهوم

Twitter: @alqareah
11.4.2015

ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة (التراث العرب)

اعداد وتحقيق:
سالم الكبتي

ثالة
للطباعة والنشر

مكتبة النيهوم: سلسلة الدراسات: (5)

ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة

(التراث العربي)

اعداد وتحقيق:
سالم الكبتي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

هاتان الدراستان نشرتا بصحيفة الحقيقة ـ بنغازي
عامي 1969 - 1970

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة (التراث العربي): 9

«إني جاعل في الأرض خليفة» 11

«فتقطعوا أمرهم بينهم» 19

«والشعراء يتبعهم الغاوون». 27

قليل من المنطق: 35

مقدمة 39

ما بعد المقدمة 47

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة
(التراث العربي)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

«إني جاعل في الأرض خليفة»

نقطة الأنطلاق بالنسبة لى أنني مواطن يؤمن بالناس ويؤمن بأن الأنسان يصل إلى هذا العالم عاريًا وأخرس لأن الله يعرف أنه لا يحتاج إلى عمامة أو قبعة مزينة بالريش ولا يحتاج أيضًا إلى أن يتكلم لغة خاصة أو يميز نفسه بعلامة تجارية مثل علبة السردين.

ذلك كله ـ بالنسبة لي ـ مجرد حل اجتماعي تتبناه الجماعات المختلفة ـ من الناس والقرود والنمل وعجول البحر ـ على السواء لكي تدبر أمر بقائها في أفضل صيغة ممكنة، فالجماعة تضع علامتها فوق الأنسان كما تضعها فوق الماشية، وكما تضعها أيضًا على حدودها الأقليمية لكي تصون وحدتها من جهة، وتتجنب الفوضى العامة من جهة أخرى. وأنا لا أقول هنا أن هذا الحل الجماعي خطأ أو صواب فالأمر في الواقع لا

Twitter: @alqareah

يتوقف على نوع العلامة التي تحملها البقرة فوق جلدها، بل يتوقف بالضبط على ما تعطيه البقرة من الحليب. واذا كانت الحضارة تتورط أحيانًا في لعبة للمفاضلة بين علامة معينة وبين بقية العلامات، مثل مزاعم الرجل الأبيض تجاه الرجال السود، فإن ذلك عادة مجرد دعاية تجارية، وهو ـ دائمًا ـ هراء عنصري.

فالأنسان يساوي الأنسان كما يساوي الغراب الغراب، والمرء لا يجوز أن يضع هذه الحقيقة البسيطة تحت طائلة النقاش الطائش الذي لا يهدف إلى شئ في نهاية المطاف سوى إضاعة الوقت بالفلسفة، فالعلامة التجارية فوق علبة السردين ليست هي السردين نفسه، ولون الأنسان ولغته وظروفه المباشرة ليست هي الأنسان نفسه.

أن الحضارة قد وعت هذا الدرس بوضوح كاف، وتعلمت بالتجربة أن حليب الأنسان هو عطاؤه الفكري لتحقيق المعجزة المتمثلة في إيجاد الطريق أمام الحضارة بأسرها. فقد عرف الإنسان أنه (خليفة الله في الأرض). وعرف أن الله يريده أن يحقق إنتصاره الخاص على ظاهرة (الشر) في العالم، ويقهر أمراضه وفقره وجهله وتسلط الآخرين عن مسيرته ومظاهر الظلم والخداع ورذيلة الجبن في مواجهة أخطائه، كما قهرها الله المتعّلى بفضائله بغض النظر عن لون الجلد أو إسم الأرض أو شكل الراية القومية. والمرء عندما يتعلم قراءة التاريخ تبهره أضواء هذه الحقيقة إلى حد يؤذي عينيه.

Twitter: @alqareah

فكلمة (سلّم الحضارة) التي تبدو للوهلة الأولى مجرد إستعارة بلاغية، ليست في الواقع إستعارة من أي نوع، وليست أيضًا حيلة لتجسيد ظاهرة التاريخ. إن الحضارة سلّم حقيقي مقام على متوازيين مثل أي سلّم عادي، أحدهما يمثل الصمود الدائم والمرهق على الجانب المادي والفكري معًا لقهر الألم الأنساني بمعرفة الجماعة، والآخر يمثل الانطلاق الدائم المتميز بالجرأة والشاعرية وراء حلم الحضارة القديم بعالم (أفضل) يخلو كلية من مظاهر الألم الأنساني.

وليس ثمة حدث حضري في التاريخ يشذ عن هذه القاعدة بمقدار عقلة إصبع، حتي إن العلماء الذين يشغلون أنفسهم بدراسة سلّم الحضارة بدأوا يرسمونه أحيانًا بمثابة مسطرة عادية من جميع الوجوده.

وأنا أعيد رسم هذا السلم لكي أضع بين أيديكم شكل اللعبة من الداخل، فالأنسان لا يتحرك في أي إتجاه طوال مسيرته الحضارية إلاّ لكي يؤدي وظيفته باعتباره خليفة الله في الأرض بصورة أفضل على الدوام.

والشكل ـ رغم بساطته المتعمدة لملاءمة ظروف الجريدة اليومية(*) ـ ما يزال قادرًا على تحديد الأتجاه العام أما العمل المعقد الذي حدث دائمًا تحت سطح التاريخ.

(*) يقصدصحيفة (الحقيقة) التي بها نشرت هذه الدراسات سنة 1969 .

Twitter: @alqareah

؟؟؟؟؟	الحضارة المعاصرة	الأنسان أداة في خدمة أفضل مجموعة قانونية بدون قمة (ديمقراطية اشتراكية)
الخطوة التالية لجأت الحضارة إلى أفضل مجموعة فكرية عامة بدون قمة أي باسقاط الخليفة (ديمقراطية انتخابية)	الحضارة الأسلامية	الأنسان أداة في خدمة الخليفه لأنه بدوره قمة أفضل مجموعة فكرية عامة (مساواة الأسلام بين المسلمين).
الخطوة التالية لجأت الحضارة إلى نظام أفضل مجموعة قانونية عامة.	الحضارة الرومانية	الأنسان أداة في خدمة أفضل مجموعة سياسية خاصة (حقوق المواطن الروماني).
الخطوة التالية لجأت الحضارة إلى نظام أفضل مجموعة.	الحضارة اليونانية	الأنسان أداة في خدمة نظام المجموعة (شبة جمهورية).
الخطوة التالية لجأت الحضارة إلى نظام المجموعة.	الحضارات القديمة	الأنسان أداة في يد الملك.
الهدف التالي		قاعدة الأنطلاق

Twitter: @alqareah

فالحضارة المصرية مثلاً تقتصر ـ في الواقع ـ على بناء أهرامات الملك ومعابده الصوانية، بل كانت تبني في نفس الوقت طريقًا آخر للأنسان نفسه لكي يتعلم كيف يهزم أمراضه، ويزيد خصوبة حقوله ويدافع عن قريته ويقتسم مياه الترعة مع جيرانه (بالعدل)، ولكن ذلك كله لم يبدُ كافيًا لتحقيق ظاهرة الرضا تجاه سلطة الملك الأله، فما يحققه الأنسان بعرقه شئ، وما يأخذه الملك من عبيده شئ آخر، وقد احتاج الأمر بضعة آلاف من السنين، وكثير من المعارك والحروب، ثم انتهى على أي حال بسقوط الملك وانتصار الإنسان عبر انحناءة واحدة في مسيرة التاريخ الحضاري الذي قفز فجأة في شمال أفريقيا ومنطقة النهرين وحقول آسيا إلى جزيرة اليونان.

وعندما سلطت الأضواء على أثينا خلال القفزة التالية، كان الدرس واضحًا بالنسبة للفلسفة والسياسة معًا، وكان الأنسان (لاجئًا) حقيقيًا من جميع الوجوه يبحث بلا إنقطاع عن موطنه القديم الذي سرقه منه الملك ومسخه أمام عينيه إلي هرم من الأحجار الصماء، ورغم أن الملك الأله لم يعد إلى مسرح التاريخ بطريقة شرعية قط، إلا أن محاولة الهروب داخل المجموعة اليونانية كانت تلبس قناعه القبيح، وتتنكر بدورها في زي الملك (القومي) وتشهر سيفه لمطاردة الأنسان عبر هبة القنص الملكية القديمة. وقد جرى الأنسان مرة أخرى مثل بقية الأرانب البرية، وتفصد عرقًا أسود في محاولة النجاة من قبضة (أثينا المباركة التي لا تضاهيها مدينة أخرى). ولكن محاولة النجاة باءت بالفشل في نهاية المطاف وألقى الأنسان

Twitter: @alqareah

المتعب عصاه في روما لكي يكتشف بعيني رأسه أن القانون الروماني الذي يمنح جاره حق السيادة هو نفس القانون العجيب الذي يفرض عليه رق العبودية، وإن العدد القديم لم يعد يتمثل في شخص الملك الأله المضحك من جميع الوجوه، ولم يعد يتمثل أيضًا في شكل الجمهورية القومية، بل أصبح - مرة واحدة - قانونًا في طبيعة العالم نفسه. وقد تحقق رد الفعل على أوسع نطاق، ولقي السيد الروماني كثيرًا من الهزائم المؤلمة في معظم ميادين القتال التي حمله إليها سوء حظه، ولكنه أكبر هزائمه على الإطلاق لحقته في المرة الأولي عند صلب عيسي المسيح ثم لحقته في المرة الثانية في موقعة اليرموك عبر محاولة واحدة شديدة الوضوح لتأكيد شكل (المساواة) في العالم. ثم تقدم المسلمون بأفضل حل ممكن داخل التنظيم السياسي المتاح للحضارة، وقاموا بتصحيح الخطأ الفاحش الذي تورط فيه الملك الآله والامبراطور الروماني على السواء.

ولكن المسلمين لم يتجنبوا بقية الخطأ عندما بدأوا يرسون قواعد التنظيم السياسي في منطقتهم، وقد نسوا نص الدستور القائل بأنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ووضعوا رماحهم في خدمة (الخليفة) لأنه بدوره أفضل فرد في الجماعة أي (خليفة الله في أرضه، وأمير المؤمنين وسليل الدوحة الشريفة). وقد انتهي الأمر على أي حال بعد إثنين وثلاثين سنة من وفاة الرسول بوضع الأنسان المسلم في خدمة عائلة أبي سفيان.

وعندما بدأ عصر النهضة في أوربا كان الدرس واضحًا إلى

Twitter: @alqareah

حد يؤذي البصر، وكان التاريخ قد أثبت بوضوح أن الدفع الحضاري في العالم لا تحكمه مظاهر القوة المادية وحدها بل مظاهر النضج الخلقي أيضًا. وأن اندحار الحضارة الأسلامية قد نجم عن نفس المصدر الذي تسبب ـ قبل ذلك ـ في اندحار الاسكندر المقدوني ودارا الأول، فالعجز عن مجازاة المد الفكري داخل ثقافة العصر لابد أن يتسبب في الصراع بين وحدتين في جسم الجماعة، فالفقهاء يتصارعون مع الفلاسفة، والشعراء يتصارعون مع أصحاب رأس المال، والخليفة نفسه يتصارع مع كل أحد ويقطع رأسه فوق النطع ثم يعلّقه على باب المدينة، لذا فقد أرست الحضارة المعاصرة قواعدها بطريقة شبه مباشرة على فكرة الانتخاب العام، وانطلقت لتحرير الأنسان ـ بقدر ما تسمح به ظروف الحرية الممنوحة ـ من نفوذ الملك ورجال الدين والأمراء مرة واحدة، ولأن هذه الحرية الاجتماعية الواسعة النطاق لا يمكن تحقيقها بأي حال إلاّ بخلق (الكفاءة الأقتصادية) فقد تميزت الحضارة الحديثة بظاهرة إبتزاز الآلة التي ندعوها أحيانًا بظاهرة التصنيع. وعاش الأنسان المعاصر تجربة الرأسمالية الاستعمارية شبه الأقطاعية وخرج منها مثخنًا بالجراح لكي ينطلق مرة أخرى عبر تجربة من نوع آخر تميزت في المعسكر الشرقي باسم(*).. (الأشتراكية الشعبية الديمقراطية) وتميزت في بعض مناطق المعكسر الغربي باسم.. (الأشتراكية) فحسب، ولكنها كانت دائمًا مجرد إمتداد للطريق الأصلي الذي إختطّه إنسان القرن الماضي في محاولة البحث عن (حريته) عبر زحمة حريات الأشياء.

(*) قبل انهيار الاتحاد السوفييتي.

Twitter: @alqareah

وأنا لا أريد أن أترك هذه النقطة قبل أن أشير إلى قول القرآن الكريم ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(*) لأن ذلك ـ في الواقع ـ هو شكل الظاهرة الحضارية المتميزة بالصراع الأبدي بحثًا عن (المرحلة الأفضل) فالأنسان لا يتطوع قط بالخروج من قفص الحضارة مهما بدا أنه يخنق أنفاسه، إنه يحتاج دائمًا إلى (منقذ) من الخارج. وإذا كانت الثورات قد حققت في فترات متباعدة نوعًا من محاولات الأنقاذ الفكري، فإن الثورات أيضًا تتغذي عادة من الخارج أو تصبح مرة واحدة غزوًا عسكريًا أجنبيًا واضحًا.

وقد وجد الأنسان منفذه الوحيد عبر (إختناقه) في الحضارات القديمة بغزوات الأسكندر، ووجد منفذه الوحيد عبر اختناقه بالميثالوجيا الوثنية وسقوطه فريسة الخداع الديمقراطي بافكار المسيح صاحب الثورة الفكرية الوسطى. ثم وجد منفذه الوحيد عبر اختناقه في كنائس الدين السياسي بثورة الأسلام النهائية التي لجأت على الفور إلى مسرح القاعدة الشعبية العامة بمجرد أن بدأ (الخليفة) يخنقها في قبضته.

إن الدفع الحضاري هو مصدر الاتجاه وايجاد الحلول، وأنا أزمع أن أضع هذه الحقيقة هنا بمثابة قاعدة للنقاش التالي، فالدفع الحضاري يعني في الدرجة الأولى أن الأفكار السائدة ـ أي التراث الكلي ـ يصبح دائمًا زنزانة مغلقة إذا فشل في متابعة آمال الناس.

والسؤال بالطبع: هل تابع التراث العربي آمال الأنسان؟

(*) الآية (251) سورة البقرة.

Twitter: @alqareah

2

«فتقطعوا أمرهم بينهم»

النقاش السابق ـ رغم كل ما اعتراه من الأيجاز ـ نجح في تأدية هدفه النهائي بطرح هذا السؤال: (هل تابع التراث العربي آمال الأنسان؟).

وأنا أتمنى بالطبع أن أجد إجابة مرضية تليق بالمقام، وأتمنى أيضًا أن أفعل مثل فقي حارتنا العجوز وأنحني إلى الوراء لكي أتهيأ للخطابة ثم أقول لكم بلكنة الفقه: (إن التراث العربي العظيم المستمد من القرآن الكريم، هو مصدر الخير والنور، لهذا العالم الحقير، ومصدر الحرية والسلام، لجميع الصقور والحمام، وهو الذي قشع حُجب الظلام، وأرسي قواعد العدل بالتمام، إلى آخر قافية الميم في اللعبة الشعرية القديمة، ولكني في الواقع لا أعرف كيف أفعل ذلك، ولا أستطيع أن أنقل لكم خطبة فقي حارتنا العجوز عن التراث العربي دون أن أتورط مثله في رذيلة الكذب. فالتراث العربي ـ في الدرجة

Twitter: @alqareah

الأولى ـ مجرد مرحلة عادية في مسيرة الفكر السياسي عبر واقع العالم.

وأنا أنوي أن أعرض عليكم هذه الحقيقة المسطحة هنا داخل أبعاد التراث العربي في نظامه السياسي والأقتصادي والأجتماعي، وأتمنى بالطبع أن ألفت نظركم إلى أن سرد الوقائع التاريخية عمل يختلف قليلاً عن خطبة فقي حارتنا العجوز.

فالمرء لا يحتاج هنا إلى أن يصرخ بصوت عال أو يلوم الشيطان، أو يسقط فريسة لقافية الميم، إنه يحتاج فقط إلى أن يضع حقائقه في طابور واحد ويعرضها للفرجة. فانظروا بأنفسكم:

إن النظام السياسي الذي تبنته الدولة العربية بمجرد أن بدأت ترسي قواعدها في دمشق لم يكن مستمدًا من القرآن الكريم، بل كان مستمدًا من تجربة التاريخ الحضاري وحدها. وقد عمد معاوية بن أبي سفيان إلى مقايضة المساواة والشورى بمبدأ الملكية المطلقة، مستنداً في ذلك إلى آراء مجموعة من الفقهاء الذين لا يعرف المرء كيف نبتوا فجأة في التربة الأسلامية العذراء، ثم غامر معاوية بقطع الجسر كلية وأدخل على نظام الدولة فكرة (الملكية الوراثية أيضًا)، معتمدًا بالطبع على نظرية (الحاكم باسم الله) التي ثبت فشلها منذ سقوط مملكة اسرائيل، وعندما ألقى معاوية خطبة العرش في نهاية المطاف، ثم هبط من فوق المنبر محاطًا بالحراس وموظفي الديوان كان في الواقع نسخة طبق الأصل من أي ملك وراثي

Twitter: @alqareah

مطلق، ولكنه كان يدعو نفسه رسميًا (أمير المؤمنين)، وخليفة الله أيضًا.

والقرآن الكريم الذي جعل الشورى ـ أي النقاش والأنتخاب ـ قاعدة الحكم الوحيدة المعترف بها في الأسلام لا يمكن أن يبقى مصدرًا لأفكار معاوية رضى الله عنه، فالطموح السياسي المحض شئ والنص الديني القاطع شئ آخر. والمرء لابد أن يرى بوضوح أن معاوية بن أبي سفيان الذي عقد عزمه على أن يترك الخلافة إرثًا لعائلته من بعده لم يكن في الواقع يستمد هذه الفكرة من كتاب لله بل من تجربة التاريخ السياسي في مصر القديمة وبابل وفارس والهند والصين وروما.

وأنا أناقش هذه الحقيقة هنا لأنني اعتبرها نقدًا من أي نوع لأعمال معاوية رضي الله عنه، فالواقع إن النقد ليس جزءًا من مهمة هذا الحديث على الاطلاق.

إن كل ما أهدف إليه هو أن أحدد بايجاز ملامح (الخلافة) من الخارج، القرآن الكريم ـ بدون التفسيرات الملتوية ـ لا علاقة له بالظاهرة السياسية التي تجلس في قصر الخلافة وتدعو نفسها باسم (أمير المؤمنين). إن ذلك النظام المحدد الأبعاد كان معروفًا في العالم قبل نزول القرآن ببضعة آلاف سنة، والمرء لا يستطيع أن يرى السبب الذي دعا الفقهاء إلى الربط بين الخليفة وبين نصوص القرآن حتى انطلقوا يدعون له في خطبة الجمعة، ويركعون بين يديه ويقبلون الأرض أيضًا، فالقرآن لا يذكر شيئًا من لعبة الخليفة، وقوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(*) لم يتحقق في سلوك الخلفاء السياسي سواء في

(*) الآية (38) سورة الشورى.

Twitter: @alqareah

العصر الأموي أو العصر الذي يليه أو العصر الفاطمي أو العصر العثماني أيضًا. ولكن الذي تحقق بوضوح صاعق هو قوله تعالي ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(*) لأن ذلك في الواقع هو ما حدث بالضبط في التاريخ الاسلامي وترك الخلافة غنيمة الصراع العائلي والنعرة العنصرية والحزبية والتكتل الطائفي، ولعله مجرد صدفة أن ترد هذه الاية في سورة تحمل (المؤمنون) فيما يتبني الملك العربي الوراثي لنفسه لقب (أمير المؤمنين). أو لعله ليس صدفة على الإطلاق، فالملكية الوراثية جزء من تاريخ المؤمنين.

هذه الحقيقة المسطحة غير قابلة للتجاهل.

إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بأي حال، ولا نستطيع أن نتظاهر بأن الأمر كله مجرد نكسة طارئة في (تراثنا العظيم)، فالواقع أن النظام الملكي الوراثي هو الشكل السياسي للدولة العربية، وهو الوجه الحقيقي الذي يراه المرء بلا إنقطاع طوال مسيرة أمتنا من قصر الخلافة في دمشق إلى بغداد والأندلس والقاهرة واسطمبول، أما (الشورى) القائمة على مبدأ النقاش والاختيار فقد انتهت كلية بعد بضع سنوات من وفاة الرسول نفسه، ولعله لن يغضب أحد إذا قلت هنا أيضًا إن الدول العربية المعاصرة هي الدول الوحيدة في العالم التي تتبنى نظامًا ملكيًا مطلقًا وإن الإنسان العربي المعاصر هو الإنسان الوحيد في العالم الذي يقول لرجل ما (يا مولاي وسيدي وولي نعمتي)، أو يرفع يديه إلى السماء في صلاة الجمعة وينغمس في الدعاء لسيده بطول العمر.

(*) الآية (53) سورة المؤمنون..

Twitter: @alqareah

هذه اللعبة لم تعد تحدث في أي مكان في العالم إلا في البلاد العربية، أعني في المنطقة التي يقول عنها فقي حارتنا العجوز إنها مصدر الخير والنور والحرية والسلام مرة واحدة، وأنا يهمني بالتأكيد أن أكتشف هنا أن أقوال الفقي العجوز مطابقة حقًا لواقع تاريخنا، فالمرء يجب دائمًا أن يعرف أن ينتمي إلى (أفضل مجموعة في العالم)، ولكني لا أستطيع أن أترك الشعر يخدعني إلى هذا الحد مادمت أعرف أنه مجرد شعر لا صلة له بالواقع.

فالتراث العربي هو التربة الحقيية التي نبتت فيها فكرة (الملكية المطلقة) داخل سياج الاسلام. وإذا كان ذلك لا يبدو قبيحًا بأي حال خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلي القرن التاسع عشر، فإنه بالتأكيد يبدو قبيحًا إلى حد لا يطاق في ضوء العصر الحديث الذي يجعل المرء ـ داخل أي نظام ملكي مطلق ـ مجرد بقرة في مزرعة السلطان.

فأمير المؤمنين لم يكون في الواقع مجرد رجل (صالح) يلبس جبة خضراء على عادة الدراويش الصالحين ويحكم بالعدل بين الناس، بل كان رجلاً سياسيًا في الدرجة الأولى يتحرك داخل دائرة مرسومة بدقة ويعمل طبق خطته الخاصة لتحديد وجهة السير أمام النظام الأقتصادي والاجتماعي والفكري مرة واحدة.

وإذا كانت هذه (الفردية) الصاعقة الوضوح فكرة معترفًا بها في عصر الخلافة الاسلامية فانها ـ من جهة ـ غير معترف بها في القرآن، ومن جهة أخرى غير لائقة بروح العصر الحالي إلى

Twitter: @alqareah

الحد الذي يدعونا إلى فرضها على تراثنا والمباهاة بها في خطبة الجمعة.

إن التراث العربي قد غلبه النوم أكثر من خمسمائة سنة، ذلك يعني أنه إذا كان عمر الحضارة عامًا واحدًا فإن التراث العربي قد نام الثلاثة أشهر الأخير منه دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة ونحن نخطئ الطريق كلية عندما نشرع في مسيرتنا الجديدة دون أن نضع هذه الحقيقة الباردة نصب أعيننا.

فالفكر الحديث لا ينظر إلى شعر المتنبي باعتباره تراثًا عربيًا بل ينظر إلى (الإنسان) داخل شعر المتنبي ويضعه في الخانة المفتوحة على طول التاريخ الحضاري. فاذا كان الإنسان هنا مجرد بقرة في مزرعة السلطان فإن شعر المتنبي لابد أن يلزم مكانه في خانة العصور الوسطى مهما بلغت قيمته الجمالية.

إن النقد المعاصر يقوم كله على هذه القاعدة الواضحة المعالم، ونحن لا يجوز أن نخدع أنفسنا بالزعم القائل إن النقد الحديث عملة استعمارية نصرانية، لأنه في الواقع ليس كذلك ولانه أيضًا مجرد ترجمة لروح العصر نفسه. وإذا توفرت لنا الشجاعة الكافية لكي ندرس تراثنا العربي في ضوء هذا الفكر الساطع الوضوح، فسوف نلمس بأطراف أصابعنا حقيقة مشكلتنا الفكرية المعاصرة.

فالتراث العربي ليس هو ألف ليلة وليلة، ولكنه بالضبط مكان الإنسان في ألف ليلة وليلة، ذلك المخلوق النابض

Twitter: @alqareah

بالأصالة الذي وضعه الخليفة في القفص لكي يغني له المديح ويهنأ بهلال العيد ويلعب له دور المهرج والخصي.

والتراث العربي ليس هو شعر أبي تمام، ولكنه بالضبط مكان الإنسان في شعر أبي تمام الذي مسخه الخليفة إلى (شاعر بلاط) معزول عن أحزان الكتلة الميتة فوق أرصفة بغداد.

والتراث العربي ليس بالضبط شكل الإنسان في كتاب الأغاني. ذلك المثل الباهر الموهبة الذي يتحرك بغموض على طول المسرح الفخم الممتد في أرجاء أرض الخلافة لكي يبدو مرة مجرد شحاذ في انتظار الصدقة من خصيان الخليفة، ويبدو مرة أخرى مجرد عجوز مغلوبة على أمرها في زنزانة مغلقة بأمر الفقهاء.

هذا هو (واقع) التراث العربي.

ونحن لا نسئ إليه عندما نقرر واقعه طبقًا لمنطق عصرنا الحالي، ولكننا أيضًا نرتكب خطأ نقديًا، لأن الحكم الحقيقي على ذلك العصر لا بد أن يصدر بمقياس العصر نفسه، أي أن النظر إلى تراثنا العربي بمنظار الديمقراطية الإنسانية المعاصرة عمل لا يمكن تحقيقه بدون رذيلة التجني إلا إذا كان أحد ما يزمع أن يفرض أبعاد ذلك التراث على عصر الديمقراطية الإنسانية.

عندئذ تحدث المفارقة القبيحة، ويرفع المرء صوته لكي يشير إلى أبعاد المأساة الأنسانية الكامنة في تراثنا بأسره فيما يصرخ فقي حارتنا العجوز في وجهه ويتهمه بالمروق والألحاد والتبعية وبعض الحيل النصرانية الأخرى.

Twitter: @alqareah

والمشكلة اكثر من مضحكة مرتين، فالمرء يبدو حقًا بمثابة مخلوق مجنون ممتلئ بأفكار معادية لشعبه وتراثه، فيما يلوح فقي حارتنا العجوز في الطرف الآخر مثل ملاك أبيض سقط لتوّه من السماء للدفاع عن تراث الأمة وتاريخها المجيد.

ورغم إن الموقف لا يضم شيئًا من هذه اللعبة في الواقع، إلا أنه يبدو من الخارج هكذا بالضبط، حتى إن المرء ليغالبه الشعور أحيانًا بأن الأفكار الخاطئة هي التي تنال وحدها القبول لأول وهلة.

هذه الظاهرة تدعوني هنا إلى أن أقول مرة أخرى إن الحكم على التراث العربي بأنه لا يليق بروح العصر، حكم يقتصر على التراث العربي الذي وصل إلينا عبر تجربة العرب السياسية والأجتماعية والأقتصادية، ولا يشمل بأي حال شيئًا آخر يخص تعاليم القرآن أو سنة الخلفاء الراشدين، أو سيرة الحكام الذين عرفهم تاريخنا بين حين وآخر باعتبارهم نقاط بيضاء في ثورنا الأسود.

وأنا التزم منهج الأجمال الذي يفرضه واقع الحديث فوق جريدة يومية، وليس بوسعي أن أتابع التفاصيل دون أن أفقد طريقي في الزحام، وليس بوسعي أيضًا أن أترك شبح فقي حارتنا العجوز يخيفني اكثر مما فعل طوال السنوات الماضية.

إنني مضطر ـ رغم كل النوايا الحسنة إلي تجاهل إنحناءة النقاش لكي أصل هنا إلى إجابة محددة على هذا السؤال الملح: (ماذا نريد أن نصون من التراث العربي؟).

Twitter: @alqareah

3

«والشعراء يتبعهم الغاوون»

ماذا نريد أن نصون من التراث العربي؟

هذا هو السؤال الذي طرحه النقاش السابق بعد محاولة خالية من التفاصيل لتحديد الفرق الحاسم بين إنطلاقة الفكر القرآني الكلي التجريد وبين نتائج الفكر العربي المتمثلة في واقع تاريخنا السياسي بالذات.

وأنا أريد أن أشير هنا مرة أخرى إلى نظرية (الحق الألهي) في الحكم التي تبناها الخلفاء المسلمون طوال الفترة الممتدة بين القرن السابع وبين بداية هذا القرن(*) لكي أضع بين أيديكم شكل القفص المغلق الذي بناه التراث العربي حول الإنسان.

فالأمة التي تضع فوق رأسها ملكًا سياسيًا يزعم أنه (خليفة الله في الأرض) لا تستطيع أن تملك داخل القاعدة العامة

(*) القرن العشرون.

Twitter: @alqareah

سوى سطح واحد يضم جميع (عبيد الله في الأرض). هذا شكل اللعبة من الداخل في كل العصور والثقافات، والرجل الذي يصل إلى العرش لأنه يملك حقًا سماويًا أو شبه سماوي في حكم الرعية، لا يجوز أن يتوقع أنه سيجد (رعية) على الإطلاق، بل مجرد كتلة من العبيد والجواري على طول مدن المملكة، وإذا كان ذلك لا يعني عادة إن الخليفة الصالح سوف ينسى إنه أيضًا عبد لله فإنه يعني بالتأكيد أن الباب مفتوح أمامه لاقتراف هذه الخطيئة في أية لحظة وقد عبر الخليفة المسلم هذا الباب بضع مرات متتالية واقترف خطيئة إدعاء القداسة بطريقة ملوثة حافلة بالدهاء الرخيص، وأحاط نفسه بالأسرار السماوية الغامضة، وترك رعاياه يسقطون على ركبهم أمامه ويقبّلون الأرض في اشارة مباشرة إلى أن (إله) الإنسان قد عاد مرة أخرى إلى عرشه الذهبي.

ونتيجة اللعبة تستطيع أن تصيب المرء بالدوار، خصوصًا عندما تتبدى بكل قبحها عبر أضواء الفكر القرآني الذي وضعه الخليفة وراء ظهره، فالأمة التي يحكمها (شبه إله) تسقط تلقائيًا في دوامة فكرية متسمة بالحيرة للبحث عن (الشكل الطبيعي) لبقائها، وهي لا تصدق بالطبع إن الخليفة يملك حقًا سماويًا في الحكم، أو إنه يزيد عن أي إنسان عادي بمقدار عقلة إصبعه، ولكنها ـ من جهة أخرى ـ ترى بعينيها عبر واقعها السياسي والفكري أن الخليفة يزيد حقًا عن بقية أفراد الأمة وأنه ـ على الأقل ـ يملك الحق في أن يحكمهم، والحل الوحيد الذي تلجأ إليه الأمة لفهم هذا اللغز، هو بالطبع أن تترك الخليفة في مكانه الأصلي باعتباره (مجرد عبد من عبيد الله)

Twitter: @alqareah

وتترك بقية عبيد الله الحقيقيين ينزلون من مكانهم بضع درجات إلى أسفل لكي لا يبدو أحد منهم مساويًا للخليفة.

هذه الظاهرة معروفة في تاريخ الصراع الفكري باسم (أ. ف. ل) أي (الخط اللامنتهي واللامحدود) وهي محاولة فكرية تقوم بها الأمة عامة لإعادة التوازن إلي فضيلة التوازن داخل الكتلة.

فما دام الخليفة لم يعد مساويًا لبقية أفراد الجماعة فإنه بالطبع لا يصبح إلهًا، بل يبقى في خانته فيما يهبط الباقون درجة أو درجتين إلى أسفل.. وأنا أعرض عليكم هنا اتجاه هذه المحاولة داخل نظام الخلافة الأسلامي مزمعًا أن أضع بين ايديكم حقيقة الفخ الذي إنطلقنا إليه عبر نظرية (الحق الألهي المقدس) في الحكم، فالمسلم الذي علّمه القرآن إنه ليس ثمة فضل لمخلوق على آخر يرى العالم في بداية الأمر عبر مرحلة الخط الواحد بمثابة وحدة لا تضم شيئًا سوى الله والأنسان، فإذا قرر الخليفة أن يفرض نفسه على هذه الوحدة، فإن الإنسان المسلم لا يضع الخليفة مع الله، بل يعطيه خانة منفصلة، ويتراجع هو متطوعًا درجة إلى أسفل، وإذا بقي الخليفة هناك وقتًا كافيًا، فإن الخطوة التالية بالطبع أن يتقدم الشعر لملء الفراغ الناجم في صدر الإنسان، ويقدم له التعويض المتيافيزيقي عما لحقه من خسارة أخلاقية في مجتمعه الخالي من فضيلة المساواة، فيما تتحول رموز الميثالوجيا إلى واقع الحياة اليومي وتصبح ألقابًا إقطاعية.

Twitter: @alqareah

فإذا تحققت هذه الخطوة فإن المرء لا يستطيع أن يتصور السرعة الخارقة التي تتوالى بها الخطوط الحادة لكي تفصل الأنسان عن ربه كما ينفصل المزارع عن صاحب الأقطاعية عبر مئات الموظفين وحملة الألقاب. وهذه هي اللعبة المميتة في مراحلها الأربع:

(1) مرحلة الخط الواحد (2) مرحلة الخط الأضافي

الله
الإنسان

الله
صاحب الأمر (الخليفة)
الإنسان

(3) مرحلة الخط الواحد (4) مرحلة الخط الأضافي

السيد
ممثل السيد
العبد

السيد
ممثل السيد (صاحب الأمر)
ولي السيد (القديس والولي الصالح)
كاتم سر السيد (آلدراويش والفقهاء)
ممثل ممثل السيد (الوزير الأكبر)
ممثل السيد (صاحب الأمر)
إلخ، ولكن الإنسان يتجه دائمًا إلى القاع

Twitter: @alqareah

وإنا أريد أن ألفت إنتباهكم هنا إلى المرحلة القبيحة الأخيرة التي ضاع منها اسم الله والإنسان معًا، فالواقع إن هذه المرحلة هي بالضبط المسرح الأسود المتسم بالسذاجة، الذي تنطلق فوقه عرائس الشعر لكي تلعب دورها الوثني في الخرافات الشعبية والأساطير والعادات الدينية والميثالوجيا العمياء الغارقة في التفاصيل حتي يصبح الدين نفسه مجرد بوابة إلى إقطاعية الفكر.

فتقام أول الأمر أضرحة الأولياء لكي تسد الفراغ الطارئ بين الإنسان وبين ربه، ثم تقام التكايا الصوفية حول أضرحة الأولياء، وينطلق (عبيد الله) للبحث عنه ـ عبر واقع الحياة القبيح ـ بدق الدفوف والصاجات وتبادل الطعنات بالمشفاة في محاولة واضحة لجعل قضية (الهرب) من الواقع عبر المعقول قضية دينية بحته. فإذا وصلت اللعبة إلي هذا الحد فإن الفصل الثاني لابد أن يشهد ظهور الفقي كاتب الأحجبة الذي يتسلل عبر ظاهرة الفراغ الفكري لكي يضع وراء محنة الحياة كل ما يستطيع أن يجده من ملوك الجن والشعوذة السحرية والشياطين.

والمرء يستطيع أن يرى نتائج هذه اللعبة الخطرة تدب مثل قملة عرجاء على طول مسيرة تراثنا العربي، ويستطيع أن يلتفت حوله لكي يراها تمص دم مجتمعنا مثل أي قملة حقيقية وسط أضواء القرن العشرين.

فالأنسان العربي المعاصر هو الأنسان الوحيد في العالم الذي ما يزال يعتقد أن المرابط(*) الميت يستطيع أن يخف

(*) في ليبيا تعني (الولي).

Twitter: @alqareah

لنجدته إذا كسب رضاه بالشموع والنذور، وما يزال قادرًا على أن يحني قامته لكي يقبّل قبر ذلك المرابط دون أن يحس بفجيعة التناقض الفكري.

والأنسان العربي المعاصر هو الأنسان الوحيد في العالم الذي ما يزال يشارك الحضارات الوثنية إيمانها بالصراع مع الجن والأرواح الغامضة ووسطاء السحرة وأعمال المشعوذين، وما يزال يلطخ عتبة بيته بالحبر الأبيض لكي لا يتسبب في إثارة غضب الفتاشة(*).

والإنسان العربي المعاصر هو الإنسان الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يحني قامته لكي يقبّل رأس الفقي ويديه أيضًا مبديًا له خشوعًا واضحًا دون أن يحس بأن الخشوع لا يحتاج إلى تقبيل الرأس وإن الفقي في الواقع مجرد موظف في وزارة الأوقاف.

والإنسان العربي المعاصر هو الأنسان الوحيد في العالم الذي ما يزال يعيش في نظام ملكي مطلق، وما يزال يرفع يديه إلى السماء فوق منبر الجامع ويدعو لموظف إسمه الملك بطول العمر والبقاء، أو يرفع يديه فوق عمود الجريدة اليومية ويدعو (لسيده) ـ على رؤوس الأشهاد ـ لكي يجعله الله ذخرًا للمسلمين ويشد بساعده بيت الدين. فإذا (تشرف) ذات يوم بمقابلة (مولاه) فإنه يسارع بالطبع إلى تقبيل يده الكريمة التي باركها الله بنسب الدوحة الشريفة لكي لا تفوته فرصة المباهاة بهذه المنحة عندما يعود إلى مجتمع (عبيد الله).

(*) في ليبيا تعني الفتاشة، ليلة العام (الهجري) الجديد: وكان لدى الناس من البسطاء إعتقاد بضرورة تناول أكبر كمية من الطعام احتفاءبها.

Twitter: @alqareah

وكل الملوك العرب ينتمون إلي الدوحة الشريفة.

وكل الملوك العرب يديرون شؤون الحكم المطلق على مسؤوليتهم الخاصة تقريبًا، ويظفرون بدعوات خطباء الجمعة بالإضافة إلى جميع محرري الصحف الذين ما يزال الملك يعاملهم مثل شعراء البلاط بالضبط، فيخلع جبته على المحرر الذي يمتدحه، ويقطع رأس المحرر الذي يهجره أو على الأقل يهدر دمه لكي يجعله يندم على معصية صاحب الأمر.

هذه الظواهر الخارقة القبح لا تبدو بوضوح هكذا في أي مكان آخر سوى أرضنا العربية، ولا يقبلها تراث إنساني آخر بدون مقاومة سوى تراثنا العربي، فالمرء لا يستطيع أن يخسر سمعته في أي ثقافة معاصرة إذا فعل شيئًا مما نفعله نحن الآن تجاه ملوكنا أو شيوخنا، أما في تراثنا الحالى فإن الأمر يبدو أكثر من عادي إن لم يبد أيضًا (واجبًا) متسمًا بالنبل.

وأنا بالطبع لا أشير إلى هذا الموقف هنا لكي أجعلكم تموتون بالحزن بل لكي أقنعكم بأن عزمنا على (صيانة التراث العربي) لابد أن يعني (تنقية ذلك التراث من أخطائه، وليس حفظه فوق رفوف المكتبة، وفرضة على أولادنا الصغار بدافع التعصب وحده).

فنحن نملك ظاهرة فكرية مليئة بالأخطاء، وليس بوسعنا أن (نصونها) حقًا في وجه التيار التقدمي المعاصر إلا إذا غسلناها من أمراضها البالغة الخطورة ومنحناها هبة الحياة الطبيعية، وذلك يعني بالتأكيد إننا في حاجة أكثر إلى حلول الفكر المعاصر، وفي حاجة إلى كثير من الشجاعة، فالبقاء داخل

Twitter: @alqareah

القوقعة المظلمة لن ينقذنا من أخطائنا، ولن تفعل ذلك أيضًا أشعار فقي حارتنا العجوز.

إن كلمة (يصون) لابد أن تعني كلمة (ينقي).

هذه هي النتيجة النهائية التي يعرضها النقاش هنا، ولكن (التنقية) نفسها لا يمكن أن تتم إلا بحلول الفكر الواعي القادر على الرؤية الواقعية. فإذا تجاهلنا هذه الحقيقة بدافع العناد أو بدافع التعصب فإن الإنسان لن يقف لكي ينتظرنا لحظة واحدة. إنه سينطلق في طريقه القديم الذي وضعه الله تحت قدميه عندما أناط به مهمة خلافته على الأرض، وقد فعل الإنسان ذلك ذات مرة، وترك التراث العربي يموت بالبهاق على باب قصر الخليفة وذهب منتصرًا إلى القمر، وما يزال الإنسان يواصل المشي بدون معونة من التراث العربي، فلا تتركوه يذهب بعيدًا جدًا، وليكن الله معكم.

Twitter: @alqareah

قليل من المنطق

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الطريق المسدود لا يوقف سيرك فحسب
بل يرغمك أيضا على العودة إلى الوراء

الصادق النيهوم

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

.... كلمة «الفكر المستورد» تعني في الواقع أن أحداً ما في هذا العالم المترامي الأطراف يعبئ أفكاره في علب الورق المقوى، ويكتب فوقها طريقة الاستعمال، ثم يرسلها الينا هنا ـ مثل أقراص الاسبرين ـ لكى يبتلعها المواطن فى بنغازى عندما يحس بوجع الرأس. وأنا أعتقد أن هذه الخرافة لا تبدو غير معقولة فحسب بل أنها أيضا تبدو بذيئة إلى حد كاف.

فالمرء ـ حتى في ليبيا ـ لا يستطيع أن يبتلع أفكاره قبل أن يقتنع بها. والاقتناع نفسه عملية فكرية هائلة الأبعاد لا تتم قط إلا ببذل الجهد العقلي الذي يصل أحيانا إلى مستوى قبول الصراع، وإذا كان ثمة مواطن بيننا يصر على استعمال هذا الاصطلاح المدهش من باب الرغبة العمياء في الحاق العار بالفكر الليبي السيء السمعة، فإنه مطالب ـ من باب الأمانة على الأقل ـ أن يلتزم جانب الواقع وينظر حوله بهدوء لكي يرى

Twitter: @alqareah

بعيني رأسه أن جميع الأفكار التي يملكها في حوزته، ويستميت في الدفاع عنها باعتبارها «من صميم الشعب» هي أيضا في الواقع «فكر مستورد».

فليس ثمة بلد في العالم «نبت» داخل حدوده.

سواء في هذا العصر أو في العصر القديم. سواء في حضارة الشرق أو في حضارة الغرب. سواء هنا أو في الجحيم إن كل فكرة وجدها الأنسان في طريقه أصبحت ملكًا مشاعًا للإنسان. والمرء يستطيع أن يلهج بالثناء على محصول أمته من الفكر الأصيل حتى يموت بالبهاق، ويستطيع أن يفقد وقاره في الصراخ دفاعًا عن التقاليد «العريقة والخصال الحميدة النابعة من صميم الشعب»، ولكنه لا يستطيع قط ـ حتى إذا مشى على أسنانه ـ أن يقنع أحدًا في نهاية المطاف بأن لعبه النابعة من صميم الشعب ليست هي أيضًا بدورها مجرد «فكر مستورد».

فالفصاحة وحدها لا تكفي.

والمرء لا يمكنه أن يغير تاريخ العالم إذا قرر أن يجلس في بنغازي ويكذب على أطفاله البسطاء لكي ينال أعجابهم برخص التراب، معتمدًا على فصاحته وحدها في «تبين مناقب الشعب وفوائده وتقاليده الأصيلة التي هبطت فوق رأسه من السماء»، فالواقع الصلد سيقول إلى الابد أن تاريخ الحضارة كله مقام على استيراد الأفكار، وأنه ليس ثمة شعب سقط من السماء محملاً بالتقاليد المقدسة، وأننا في ليبيا بالذات منغمسون في

Twitter: @alqareah

الفكر المستورد إلى حافة طاقيتنا الحمراء(*) المصنوعة في تونس.

هذا شكل العالم بدون أكاذيب الرجال الفصحاء.

مجرد سوق مفتوحة على الدوام يرتادها الأنسان في جميع العصور وجميع الثقافات لكي يشتري منها ما يحتاج إليه من الثياب والأفكار وفرش الاسنان، ثم يعود بسلته إلى «أرض الوطن» ويعمل على تطوير مشترياته لكي تلائم حاجته أكثر، ريثما تطرأ على السوق بضاعة جديدة.

وليس ثمة شعب في العالم لم يملأ مخازنه من الأفكار المستوردة.

وليس ثمة شعب أيضًا لم يحضر إلى هذه السوق ويشتري تقاليده «العريقة» بنفس العملة التي يشتري بها علف حميره. ولكن الرجال الفصحاء ـ خصوصًا في بلد صغير مثل ليبيا ـ يحبون على الدوام أن يلعبوا دور السمسار الذي يسخّر لسانه لكي يقنعك ـ رغم أنفك ـ بأن بضاعته وحدها هي التي تستطيع أن تحملك إلى الجنة مزودًا برضاء الله والجيران، وأن بقية السماسرة مجرد لصوص غشاشين يزمعون أن يخدعوك عن طريق الهداية ببضائعهم المستوردة من بلدان النصارى المجانين.

هذه مهزلة الدفاع عن التقاليد عندنا.

مهزلة شيخ المحلة(**) المضحك الذي يموت مرتين لكي

(*) الطاقية الحمراء: غطاء للرأس يلبسه الرجال في ليبيا، وتسمي (الشنّه) وفي تونس (الشاشية).

(**) شيخ المحلّة: إمام الحي.

Twitter: @alqareah

يقنعنا بأننا لابد أن نشتري من دكانه وحده، وأننا لا نملك ثمة سببًا للشكوى لأن كل شيء في ليبيا على ما يرام، وأننا - في الواقع - لابد أن نموت من السعادة ما دام الله الطيب القلب لم يتركنا نولد في بلدان الناس الآخرين السفهاء بل أنزلنا بحبل من سماواته النقية إلى ليبيا مباشرة حيث تزدهر «الخصال الحميدة والتقاليد العريقة والشهامة والنبالة وفضائح شيخ المحلة على باب وزارة الأوقاف».

أنا أعتقد أن الخدعة بأسرها تبدو رخيصة إلى حد كاف.

وأعتقد أيضًا أن الرجل الذي يلجأ إلى العبث بأطفاله على هذا النحو، لا يستحق في الواقع أن تلد له إمرأته حتى دمية خشبية، فالمرء لا يسمح لنفسه بارتكاب هذه الرذيلة ما دام يملك ذرة واحدة من احترام ظاهرة الحياة، ولا يسمح لنفسه أيضا بأن يقود أطفاله البسطاء إلى زقاق مسدود ثم يذهب إلى الجنة محمولاً على الاكتاف.

إن السمسار مكانه فى سوق البقر.

أما صفوف الشعب العاملة التي تضج بالحياة والصراع فأنها لا تستطيع أن تتوقف لحظة واحدة لكي تنصت إلى أشعاره المزرية بخصوص أبقاره العريقة. فالحياة أخذ وعطاء، وليست جلوسًا على ناصية الزقاق لحراسة أفكار الناس الميتين. والحياة عمل دائب لإيجاد الشيء الأفضل، والحل الأفضل، سواء كان ذلك في ميدان مكافحة المرض بوسائل الطب الحديث أو مكافحة الجهل بوسائل الفكر الحديث.

أما أن يجلس المرء فوق سدته الخشبية ويدلق خطبه فوق رؤوس أطفاله باعتباره يعرف وحده كل شيء، فإن ذلك - في الواقع - مجرد دعارة تليق بمقام السدة.

Twitter: @alqareah

أنا أستطيع أن أعترف بأنني هنا لا أستعمل لغة مهذبة.

وأستطيع أن أعترف أيضًا بأننى أشعر بالمرارة تجاه ما يقال أحيانًا في ليبيا عن ظاهرة «الفكر المستورد» فالزعم بأن كل محاولة للخروج من ورطتنا الفكرية المعاصرة مجرد مؤامرة تحاك علنًا «ضد خصالنا الحميدة وتقاليدنا العريقة»، زعم بذئ يختفي وراء أصنام الكتلة المريضة، ويعمل على تشويه الرجال الشرفاء لكي تبقى ليبيا مربوطة بحجر إلى فضائح القرون الوسطى، ولكي لا تتركه وراءها وتضطره إلى أن يلهث حقًا من أجل رغيف عيشه.

الدافع حقير إلى هذا الحد بالنسبة لي.

وأنا أصفه بالحقارة لأن لغتنا لا تضم صفة أخرى أكثر وضوحًا للرجل الذي يتطوع بمهمة القيادة الفكرية أعتمادًا على الفصاحة وحدها، ويغلق الطريق أمام مسيرة أطفاله باسم مقدسات جدوده الموتى، ويرضى بأن يكسب لقمة عيشه عن طريق القيام بدور حارس المقبرة وسط الأحياء.

إنه بالضبط أحقر حارس فصيح في العالم، لأن ما يقوله لنا عن «الفكر المستورد» مجرد محاولة رخيصة من جانبه لكي نتركه يكسب خبزه بثمن موتنا، ولأن «أفكاره» التي يدعوها أمامنا باسم «التقاليد العريقة والخصال الحميدة والشهامة والنبالة» هي بالضبط أسوأ أنواع «الفكر المستورد».

وأنا هنا - فوق هذا المنبر المفتوح للنقاش - وأمام شيخ المحلة وصديقه الشيطان، سأقول مرة أخرى - وبدون رغبة في تشويه مقدساتنا الحقيقية - إن جميع الأفكار التي تباع لنا عن

Twitter: @alqareah

تقاليدنا الأصلية هي أيضًا أفكار مستوردة، وأنها جاءت إلى بلادنا في أسوأ الظروف وأكثرها ايغالاً في الحماقة والجبن.

ولكي يموت شيخ المحلة بالغضب الساطع.

ولكي يفقد فرصته القديمة في المبادرة إلى لعني على الرصيف معتمدًا على فصاحته وحدها، أنا أزمع هنا أن أعرض عليكم الأمر بالتفصيل، وأزمع أن أتابع أمامكم بعض تقاليدنا العريقة «النابعة من صميم الشعب» وأترككم ترون بأنفسكم أنها ليست نابعة من صميم شعبنا حقًا، وإنها ليست نابعة من صميم شعبنا حقًا، وإنها مجرد «فكر مستورد» محض، جاءتنا في أسوأ الظروف وأكثرها بؤسًا من أسوأ ماخور حضاري عرفه العالم في شمال أفريقيا.

ذلك الماخور اسمه «قرطاجنة».

وهي امبراطورية بربرية تأسست في بداية القرن التاسع قبل الميلاد على يد البحارة الفينيقيين، ومدت نفوذها على طول الساحل الأفريقي وجزر البحر المتوسط حتى دخلت ليبيا كلها في حوزتها عند بداية القرن السادس، وقد تبنت هذه الدولة، بالإضافة إلى عادات البربر المحليين، مجموعة من الاصنام الفينيقية الدموية منها على وجه التحديد بعل وتانيت وعشتارت، وكانت تذبح لهم الأطفال وأسرى الحرب بمثابة قرابين رخيصة الثمن في معظم أيام السنة، أما في المناسبات الخاصة فإن سكان قرطاجنة الاتقياء كانوا يذبحون أمرأة.

من هذه المجزرة جاءت معظم تقاليدنا الليبية العريقة.

فدعونا نتابع الأمر بالتفصيل، ودعونا نبدأ بالمرأة الليبية

Twitter: @alqareah

التي يريد شيخ المحلة أن يقنعها بأن «الجربي(*) والرقعة(**) والوشمة والباب الجواني(***) وليلة الدخلة» قد جاءتها جميعًا ملفوفة في ورق العنب من السماء نفسها. وأنها لا يجوز أن تسقط فريسة الفكر المستورد من بلدان النصارى وتفقد مكانها في الجنة.

فالواقع أن الجربي والرقعة والباب الجواني وليلة الدخلة هي أيضًا فكر مستورد، وإذا كان شيخ المحلة يريد أن يدافع عن مكان السيدة الليبية في الجنة بلعنه لأفكار النصاري، فأين يعتقد أن يستطيع أن يحملها بأفكار مواطني قرطاجنة الوثنيين؟

أليس مذبح عشتارت هو بالضبط نصف الطريق إلى جهنم.

(*) الجربي: عباءة سوداء من الصوف تلبسها النساء، وتسمى (جرد)، وأصلها من (جربة).

(**) الرقعة الفيلاني: حذاء طويل العنق، ترتديه النساء.

(***) الباب الجواني: الباب الداخلي الذي يفضي إلى البيت بعد الباب البراني (الخارجي).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

ما بعد المقدمة

.... وقلت لكم أن السيدة الليبية نصف المباركة التى لا تضع يدها في شيء إلا لكي تجعله مقدساً إلى حد الموت، جاءت كلها مرة واحدة، من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، مستوردة داخل قفة من حضارة قرطاجنة. وقلت لكم أن شيخ المحلة الذي يتطوع للصراخ دفاعاً عن تقاليدنا ضد «الفكر المستورد من بلدان النصارى» لم يعرف هذه الحقيقة القبيحة قط، ولم يعرف أيضاً . طوال خمسين عاما قضاها في سماع سيرة الهلالية . أن تقاليدنا العريقة النابعة من صميم الشعب قد جاءت في الواقع من شعب وثني.

فدعونا نرتكب خطيئة الموسم وننظر من ثقب المفتاح إلى السيدة الليبية نصف المقدسة، التي لا يريد شيخ المحلة أن يتركها تفقد قصرها في الجنة بفعل أفكار النصارى المعاصرين.

إن الوشمة الخضراء التي تمتد من حافة الفم إلى حافة

Twitter: @alqareah

الذقن تقليد بربري معروف في شمال أفريقيا منذ القدم، ولا علاقة له على الاطلاق بالتقاليد العريقة أو الخصال النبيلة، لأنه في الواقع مجرد عادة خاصة شائعة بين نساء البربر بمثابة علامة مسجلة تثبت أنتماء المرأة إلى قطيع النساء البربريات، وتمنحها الحق في أن تموت ذبحًا بالسكين عند قدمي الربة عشتارت في أحسن أعياد السنة، فإذا كانت السيدة لا تحمل الوشمة المذكورة، فإنها ـ بالنسبة لسكان قرطاجنة الاتقياء ـ لا تستحق حتى الذبح.

هذه العادة معروفة في العالم منذ أن كان شيخ المحلة مجرد قرد عارٍ يذرع سهول آسيا بحثًا عن مخابىء الخنازير البرية، وقد بدأت في أول الأمر بمثابة رمز خاص لعبادة آلهة المطر، ثم تبناها البربر في شمال أفريقيا لإظهار ولائهم تجاه بعل وعشتارت، وطفق الرجال والنساء معًا يمزقون جلودهم بالمطاوي ويحكونها بقشر الرمان لكي يلفتوا نظر أصنامهم إلى الوشمة الحمراء ويكسبوا بذلك قليلاً من الرحمة. وعندما وصل الإسلام إلى شمال أفريقيا، ومنح البربر رحمة الله بالمجان، حك أحد الحكماء رأسه مرتين وأكتشف على الفور إن الوشمة ـ ما دامت لا تجلب الرحمة ـ فأنها تستطيع على الأقل أن تحفظ المسلم من العين.

ومنذ ذلك الوقت شرعت السيدة الليبية تمزق ذقنها بالابر الحادة، وترسم الخطاف بين عينيها، وتضع فوق أنفها أيضًا نقطة أضافية لكي تضمن إلى الابد أن الشيطان نفسه لا يستطيع أن يصيبها بالعين، ومنذ ذلك الوقت حازت السيدة الليبية رضاء شيخ المحلة، وعرف أنها ستذهب إلى الجنة حتى

Twitter: @alqareah

أنه بات يمنحها الحق في الزواج بمجرد أن «تدق» وشمتها، ووهب نفسه للدفاع عنها في الصحف المحلية. فإذا نسي المرء أن يضع هذه العلامة المسجلة في الميعاد، فإن أبنته قد لا تجد من يتزوجها حتى بالمجان، وإذا أسعدها الحظ بتحقيق هذه المعجزة - رغم أنف شيخ المحلة - فإن حماتها المباركة تدعوها في نهاية الأسبوع باسم «النصرانية» لكي تجعلها تعرف أن فرحتها بالزواج بدون وشمة سوف تنتهي في جهنم على أي حال.

إنه نوع من الحسد الذي تستطيع أن تتجنبه إذا أخذت بنصيحة شيخ المحلة وحافظت على تقاليدنا العريقة بوضع نقطة خضراء فوق أنفك مع قليل من «النفج».

فماذا أيضا؟

«التكليلة»(*)

أجل دستة الحلقات الفضية التى تحملها أمنا الطيبة القلب معلقة في ثقوب أذنها لكي يعرف الجيران أنها من أهل الجنة، مجرد عادة بربرية أخرى كانت شائعة بين جميع نساء أفريقيا من مذبح عشتارت في قرطاجنة إلى مذبح الساحر الملىء بالجماجم البشرية في مراعي زنوج الماساي.

وكانت أيضًا مجرد خدعة يلجأ إليها المواطنون البسطاء لإظهار «ثرائهم الفاحش»، وقتل بعض جيرانهم بالحسد. ذلك الهدف الازلي الذي ظل على الدوام وراء معظم العادات الرديئة في تاريخ الحضارة بأسرها، فالسيدة الزنجية نصف العارية

(*) التكلليلة: نوع من الحلي النسائية، فضية وذهبية تلبس في الاذنين.

Twitter: @alqareah

تحب أن تعلق في أذنيها نصف رطل من الحلقات النحاسية عندما تخرج مع جاراتها للبحث عن فئران الحقول الميتة لكي لا يتصور أحد أنها تكاد أن تموت من الجوع، ولكي تعرف جاراتها أن زوجها الشجاع الذى أحضر لها نصف رطل من الحلقات الصفراء في ليلة العرس يستطيع بالطبع أن يحضر لها أيضًا قطيعًا كاملاً من الخنازير البرية بمجرد أن تشير له بأصبعها، ولكنها في الواقع تفضل أن تخرج للبحث عن الفئران الميتة مع جاراتها من باب المجاملة ليس غير.

هذه حقيقة اللعبة الساذجة من الداخل.

فالمخلوق البدائي الذي لا يملك شيئًا داخل جمجمته سوى تفاصيل عالمه الضيق، يلجأ على الدوام إلى زيادة رقعة أفكاره بتعقيد هذه التفاصيل إلى أبعد حد ممكن، كما يبالغ المرء في زخرفة غرفته الوحيدة.

والمرأة الزنجية التي تعيش نصف عارية على حافة الادغال لا تملك شيئًا في الواقع سوى جسدها البسيط التركيب المتشابه كلية مع جسد أية أمرأة أخرى في المنطقة، وليس ثمة فرصة واحدة لتمييز هذه الكتلة العادية من اللحم والعظام أو أظهار دلائل الثراء فوقها إلا عن طريق زخرفتها بالحلقات النحاسية وبعض العقود المصنوعة من الودع.

هذا يحدث في مناطق الزنوج.

ويحدث في مناطق البربر وفي ليبيا على السواء. وقد جاءت «التكليلة» المزرية من هذا الباب بالضبط، ولجأت اليها السيدة البربرية في قرطاجنة لكي تظهر للجيران ما خفي عنهم من

Twitter: @alqareah

ثروة زوجها، ولجأت اليها السيدة الليبية لتحقيق نفس الهدف أيضًا، فإذا كان المواطن غنيًا إلى حد كاف فأن امرأته تثقب أذنيها لكي تعلق حلقات ذهبية في الثقوب، أما إذا كان المواطن فقيرًا ومضحكًا، فإن امرأته تثقب أذنيها على أي حال وتعلق فيهما حلقات فضية في انتظار الفرج. فإذا حصل ذلك المواطن على قرض مفاجيء من المصرف العقاري، فإن أول ما يفعله بالطبع أن يشتري «تكليلة» ذهبية لكي تعلقها امرأته في الثقوب الجاهزة.

هذا يحدث بوصية من شيخ المحلة.

ويكتبه المرء في وثيقة الصداق أمام الله وبقية الشهود، ويمارسه المواطنون عندنا باسم التقاليد العريقة المؤدية إلى الجنة. فإذا حدثت الكارثة، واضطرت السيدة الليبية المباركة إلى المشاركة في أحد الاعراس قبل أن يحصل زوجها على قرض من المصرف العقاري، فأنها تخلع حلقاتها الفضية، وتستعير «تكليلة الذهب» من جارتها لكي تصبح «محط الأنظار» في العرس، دون أن يخطر ببالها ـ حتى من باب الخصال الحميدة المعروفة عن شعبنا ـ إن الكذب على الناس ليس في الواقع أفضل من الفقر.

فماذا أيضا؟

الدملج(*)

أجل، تلك الدرقة الفضية التي تحيط بزند أمنا نصف المقدسة جاء بدوره من قرطاجنة. لأن السيدة البربرية التي

(*) الدملج نوع من الحلي النسائية فضية وذهبية تلبس في اليدين.

Twitter: @alqareah

عاشت في عصر هانيبال كانت تحتاج إلى درع سهل الاستعمال يمكن اللجوء إليه في أوقات الشدة لاتقاء سيف زوجها الذي لا يعرف أحد متى يهبط فوق رأسها من السماء. وقد جربت تلك السيدة مجموعة هائلة من الحيل، ولكن أفضل حيلها على الإطلاق تمثل في الدملج الذي لم يوفر لها الحماية الدائمة من زوجها فحسب، بل منحها أيضًا فرصة أخرى - بالاضافة إلى التكليلة - لكي تجعل جاراتها يعرفن بنظرة واحدة أنها امرأة غنية إلى حد يستحق الحسد، وأنها تستطيع أن توفر لنفسها درقة من الفضة الخالصة تزن خمس أقات، وأحيانًا أيضًا درقة من الذهب.

هذه الحيلة التى تكسر القلب وصلت بأكملها إلى ليبيا، وأضافت إليها السيدة الليبية أربع «ثومات» زيادة فى الاحتياط ضد سيوف الرجال الليبيين من جهة، ورغبة منها في إقناع جاراتها بأن درقتها الذهبية تزن أكثر من خمس أقات، وأن أحدًا لا يملك فرصة منافستها من جهة أخرى.

فإذا دقت ساعة الصفر.

وتزوج أحد ما في الزقاق المجاور، فإن السيدة الليبية تبادر إلى ارتداء حالة الحرب وتخرج لقتل جاراتها بالحسد مسلحة بالتكليلة والدملج والخلخال(*) والحوتة الخرقاء التى تجلس فى وسط العقد متحفزة للعمل ضد «عين الحسود» بالإضافة إلى القرون. فإذا ماتت الجارة بالحسد، فهذا أمر مرغوب فيه. أما إذا فتحت تلك السيدة عينها الشريرة، ونسيت أن تذكر اسم

(*) الخلخال: نوع من الحلي النسائية فضية وذهبية تلبس في الرجلين.

Twitter: @alqareah

الله، فإنها في الواقع سوف «تأخذ» في عينها عشرين قرنًا ذهبيًا بالاضافة إلى السمعة الرديئة.

هذه حُلي أمنا نصف المقدسة.

مجرد مجموعة من طواطم الثقافات الوثنية التى ازدهرت فى مزبلة الفكر للدفاع عن العباد الاتقياء ضد الأرواح الشريرة وآلهة الحسد، وضد «العين» المتوقعة من جانب الفقراء، لكي يعيش الاغنياء في أمان، ويقتلوا جيرانهم بالحسد دون أن يتعرضوا لأية أخطار.

هذه حُلي أمرأة شيخ المحلة الذي يصرخ بأعلى صوته فوق الجريدة المحلية دفاعًا عن «تقاليدنا العريقة السمحة». مجرد مجموعة من اللعب الوثنية البلهاء التي تهدف ـ في الدرجة الأولى ـ إلى تأكيد الطبقة الاقطاعية، وتجميد رأس المال العامل في خزانة جارية السلطان، وقتل الفقراء بالحسد، ووضع الإنسان الطيب القلب في خدمة الارواح الشريرة والحوتة التي تحمي من «العين».

هذه فضيحة قرطاجنة من الداخل.

وأنا أعرف هنا إن الأمر يدعو إلى الغضب، ولكني مضطر إلى أن أقابله بقليل من عدم المبالاة لكي أوفر ما أملكه من الجهد لمتابعة الحيلة الخارقة القبح التى تدعي في لغتنا المعاصرة باسم «الجربي».

فذلك في الواقع هو «غطاء» قرطاجنة من الخارج.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

3

.... وقلت لكم أن السيدة الليبية الطاهرة الذيل ما تزال . حتى كتابة هذه السطور . تعيش ثقافة نصف وثنية تعتبر العالم مجرد مسرح معد للصراع ضد «العين» ببركة الوشمة والقرون والحوتة. وقلت لكم أن شيخ المحلة العارف ببواطن الامور، لم يعرف هذه الحقيقة قط، ولم يخطر بباله ايضا أن السيدة زوجته التي تعيش معه تحت سقف واحد تملك في علبة حليها مجموعة كاملة من الطواطم السحرية المعدة خاصة لقتل بقية المواطنين بحيل الربة عشتارت.

هذا وجه الحق من الداخل.

أما من الخارج فإن السيدة الليبية مغطاة «بالجربي» والمرء يعرف بالطبع أن شيخ المحلة الذي يعتبر عجوزه المحطمة القدمين «حرمًا» نصف مقدس لابد أن يفعل كل ما في وسعه لكي يغطي «حرمه» بالجربي وبالاسلاك الشائكة أيضًا،

Twitter: @alqareah

فالوقاية دائما خير من العلاج، ثم أن ترك الحبل على الغارب لعجوزك النزقة لكي تخرج بدون عباءة وتقتل المواطنين بالإغراء أمر لا تحمد عواقبه بالنسبة لمخزون المجتمع من الفضائل.

إن المرء لابد أن ينقذ مواطنيه من الحب والعادة السرية، هذا أمر واضح لا يحتاج إلى جدال. ولكن الذي يحتاج إلى أكثر من الجدال هو صراخ شيخ المحلة فوق الصحف المحلية، وخروجه من نطاق «حرمه» المذكورة إلى حرم العقيدة نفسها لكي يفرض «الجربي» على تعاليم الدين ويجعله «زاد» المرأة المؤمنة إلى الجنة، ويقحمه في مسيرة أطفاله باسم تقاليدنا الأصيلة عبر حزمة مميتة من أشعار الدرجة الثانية.

فالواقع أن ذلك كله مجرد كذب محض.

ومجرد محاولة خالية من روح النبالة لتسليط الكتلة المريضة ضد نفسها، ووضع العقيدة في خدمة العقد النفسية وطمس معالم الجريمة البذيئة بيد سماوية لا علاقة لها بأمراضنا،

فأنظروا بأنفسكم ماذا يقال عندنا عن «الجربي».

إنه رمز العفة. هذه واحدة. والثانية أنه درع المجتمع المسلم ضد حيل الحضارة الغربية المنحلة، والثالثة إنه يحافظ على «حرمك» من عيون بقية الليبيين الشرفاء الذين يبدو أن أحداً منهم لا يثق في الآخر قيد أنملة رغم كل ما يقال عن خصالنا الحميدة، والرابعة إن الجربي . طبقًا لوصية شيخ المحلة الطاهر الذيل . أصبح حصان المرأة الليبية الذي تركبه مرفوعة

Twitter: @alqareah

الرأس من السدة إلى باب الجنة مباشرة دون أن تتعرض لفخ واحد من فخاخ الشيطان في دار الفناء.

هذه فوائد الجربي والأسلاك الشائكة أيضًا. وأنا هنا لا أزمع أن أنكر منها شيئًا سوى نقطة واحدة لابد من التعرض لها رحمة بحرم شيخ المحلة التي تصدق حقًا أن زوجها الشجاع يلفها في عباءة سماوية.

فالجربي جاء من جزيرة «جربة» وليس من السماء. وهو صناعة معروفة فى قرطاجنة منذ القرن السابع قبل الميلاد أحضرها الفينيقيون إلى المنطقة باعتبارها صناعة شائعة بين العائلات، ثم أزدهرت في معامل النسيج المقامة على طول الساحل الأفريقي ووصلت حدًا عاليًا من الإتقان فى جزيرة جربة حتى نهاية عصر قرطاجنة حيث تراجعت مرة أخرى لكي تصبح صناعة تقوم بها العائلات داخل البيوت بالإضافة إلى صناعة الطاقية.

وشيخ المحلة العالم ببواطن الأمور يعرف بالطبع أن بعض العائلات الليبية ما تزال تكسب جزءًا من قوتها عن طريق نسج العباءات الصوفية حتى الان، ويعرف أيضًا أن كلمة الجربي مجرد دعاية محلية للإعلان عن جودة البضاعة، وأن أستعمال العباءة الصوفية في شمال أفريقيا - قبل أن يصبح طريقًا إلى الجنة - كان مجرد أمر تفرضه طبيعة المناخ بالنسبة للرجال والنساء على السواء.

أما لماذا أصبح الجربي رمزًا لعفة المرأة الليبية، فهذا أمر لا يعرفه شيخ المحلة لأنه ليس مذكورًا في سيرة الهلالية، ولأن

Twitter: @alqareah

المرء يحتاج إلى بعض الشجاعة لكي يترك العقيدة وشأنها ويعترف لنفسه بأن جميع الحضارات البدائية التي اعتبرت المرأة مجرد محظية للرجل وبقرة لحليب أطفاله كانت تلفها في غطاء ما وتقفل وراءها الباب الجواني.

حدث ذلك فى قرطاجنة، وحدث في معظم الحضارات الأخرى، وحدث في العصر الفاطمي، وما يزال يحدث عندنا الآن. فالعباءة التي يضعها الرجل فوق كتفه لكي يحمي نفسه من وهج الشمس تصبح في غمضة عين حجابًا يخفي بقرته عن الانظار ويحميها من شبق ثيران الآخرين لكي تصير ملكه وحده حتى يضعها فوق رأسها ويجعلها إلى الجنة طاهرة الذيل دون أن يتورط في وجع الدماغ.

وأنا أقول هنا أن «الجربي» عندنا يؤدي هذه المهمة بالضبط. وإن شيخ المحلة مصاب بعقدة جنسية، ومصاب بالغيرة ومركب النقص. وأنه فقد اتزانه تحت ضغط هذه الأمراض حتى دفعه اليأس إلى أن يكذب على الله ويسخر عقيدتنا السمحاء لخدمة أغراضه وحدها. وأنا أزمع أن أعرض عليكم الأمر بالتفصيل.

للخروج مع امراته بين حين وآخر.

أعني لكي يحملها إلى أهلها في زيارة رأس العام، أو لكي يرافقها إلى المرابط المجاور الذي زارها ليلة الجمعة في المنام وطلب منها أن تحرق عند رأسه قليلاً من البخور، أو لكي يحملها إلى الطبيب ويتركه يضع في عينها نصف العمياء قطرة الديك. شيخ المحلة مضطر بالطبع للخروج مع «حرمه» مرة في

Twitter: @alqareah

العام، وهو يعرف ـ بطريق الحكمة والعقد النفسية ـ أن هذه المغامرة تستطيع أن تكلفه في ليبيا معظم أسنانه إذا لم تكلفه «شرفه» أيضًا، فالمواطنون ينتظرون رؤية إمرأته بفارغ الصبر، والبقال المقيم عند الناصية يزمع أن يترك كل شيء جانبًا ويطل برأسه من باب الدكان لكي يلقي نظرة على كراعها.

والحمال صاحب الحمار الأبيض يزمع أن يلتفت وراءه حتى يلتوى عنقه ثم يدق ضلوع حماره بيأس ويصرخ مطالبًا بحصته من الحب، والجزار الدموي ينتظره عند المنعطف لكي يشخر له ويجعله يموت من الخوف على بقرته، وسائق العربية يطرقع سوطه في الهواء ويترك شنباته تطل من الجانبين في محاولة واضحة للتقليل من شأن شيخ المحلة أمام زوجته، والعالم كله يراقبه من الرصيف المقابل.

فماذا بوسعه أن يفعل؟

إذا قال شيئا فأنه في الواقع سوف يفقد معظم أسنانه قبل أن يعرف ماذا حدث، فالمواطن الليبي المعروف في خطب الجمعة بالنبالة والخصال الحميدة لا يميل إلى الكلام باللسان على عادة النساء، ولا يحب الأخذ والرد أيضًا. أنه يسارع بشتم الدين ثم يرسل يمينية شبه مستقيمة في اتجاه أسنان شيخ المحلة مصحوبة بركبة عاجلة لكي يطرحه على الأرض أمام أمرأته بعد أن يلصق بها لقب «الغولة» من باب أظهار العفة.

هذا يحدث إذا فتح شيخ المحلة فمه وطلب من أحد المواطنين أن يكف عن النظر إلى بقرته. أما إذا قرر أن يلتزم جانب الحكمة ويتظاهر بأنه لا يملك بقرة على الاطلاق، فإن

Twitter: @alqareah

عقدته النفسية تجعل قلبه يحترق من الداخل مثل صوفة على سور الجحيم.

إنه يتصور أن العالم بأسره ترك كل مشاغله جانبا ووقف مبهوتًا أمام كراع أمرأته، وأن كل مواطن يمر من الشارع يأخذ من قلبها قطعة، وإن تلك السيدة المليئة بالحيل تضرب موعدًا مع كل رجل يقابلها لكي تضع قرنين فوق رأس شيخ المحلة، وإن أحدًا لم يعد يملك ثمة ما يشغله سوى أن يموت بالحب على قدمي هذه الفتنة المتبرجة، وإن شرف شيخ المحلة ـ الذي يشبه عود الكبريت ـ قد انطفأ إلى الأبد وأصبح مضغة في كتب التاريخ.

هذا كله يحدث عن طريق الحكمة والعقد النفسية، ويجعل المرء يفقد اتزانه رغم أنفه، ويجعله مستعدًا لأن يفعل أى شيء لكي يتجنب حريق الغيرة ومركبات النقص والعقد الجنسية، فإذا كان المرء يملك عباءة فوق كتفه، ويملك فقيًا جائعًا على باب الجامع، فإن أول ما يفعله بالطبع هو أن يغطي «حرمه» بالعباءة ويرشو الفقي ببعض النقود والبيض لكي يقنعها بأن العباءة هي طريقها الوحيد إلى الجنة نفسها.

ذلك بالضبط ما فعله شيخ المحلة لكي يطفئ حريق عقدته الجنسية على حساب عقيدتنا، ويضع أمنا السيئة الحظ داخل بطانة من الصوف، ويتشقلب أمامنا بأشعاره المميتة للدفاع عنا ضد «الفكر المستورد» والانحلال النصراني والفساد والكفر، دون أن يخطر بباله ـ من باب الرحمة على الأقل ـ أن يمنح أطفالنا فرصة بناء عالمهم بدون إهانة الدين والإنسان وبدون عقد نفسية.

Twitter: @alqareah

إن المرء يحس بالعار تجاه هذا السمسار.

ويحس بالعار تجاه جبنه المزري وحيله الخالية من روح الإيمان والنبالة والمرء يعرف أن «حرمه» نصف المقدسة لا تعني شيئا بالنسبة له سوى نصف فضيحة جاهزة لابد أن يغطيها بالجربي ويتركها تمشي وراءه على بعد عشرة أمتار لكي لا تعرف قط ما إذا كان المواطن الذي مر بجانبه في الاتجاه المضاد قد نظر إليها بطرف عينه. إن شيخ المحلة يخجل من المشي مع أم أطفاله إلى هذا الحد، ويتركها تلهث وراءه داخل بطانة الصوف، على بعد مسافة كافية لكي لا يعرف أحد إنها تخصه، ويثلم شرفه الرفيع بالنظر إلى كراعها.

هذا نوع من الفكر السائد بين النعامة وشيخ المحلة. وهذا أيضًا مصدر الجربي الذي يغطي به «حرمه» من الرأس إلى أسفل الركبة. أما الجزء الباقي فإن السماء بالطبع أنزلت له «الرقعة الفيلاني»(*).

(*) الرقعة الفيلاني: حذاء طويل العنق ترتديه النساء.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

4

.... وقلت لكم إن «الجربي» ـ الذي يزعم شيخ المحلة أنه درع العفة والطهارة في مجتمعنا ـ مجرد حيلة متواضعة من جانب ذلك الرجل غير المتحضر للهروب من عقده الجنسية على حساب عقيدتنا وقلت لكم إن الجزء الباقي من جثة المرأة الليبية ـ الذي لم يستطع شيخ المحلة أن يغطيه بالجربي ـ اخترع له «الرقعة الفيلاني»، وزعم أنها نبعت أيضا من صميم الشعب بعد أن نزلت فوق رأسه داخل قفة سماوية.

وأنا أريد أن أقول لكم إن هذه «الرقعة الفيلاني» جاءت من قبائل الفولاني في النيجير.

وإن البضاعة وصلت الينا عبر طريق القوافل في الجنوب حيث كان النيجر أحد المراكز الرئيسية لتجارة الجلود وكان التبو والطوارق يعملون بمثابة حلقة اتصال بين السواحل الشمالية وبين أسواق أفريقيا الممتدة من حافة الصحراء إلى قلب القارة.

Twitter: @alqareah

أما نسبة الرقعة إلى قبائل الفولاني، فهي في الواقع مجرد حيلة بسيطة من حيل الدعاية ـ مثل نسبة الجربي إلى جزيرة جربة ـ لأن قبائل الفولاني كانت تتمتع بسمعة مدوية في المنطقة الممتدة من النيجر إلى شمال نيجيريا، ولأن هذه القبائل بالذات لعبت دورًا خاصًا في تحقيق الاتصال بين شمال أفريقيا وبين مراكز التجارة في الجنوب منذ وصول الرومان إلى المنطقة قبل القرن السابع إلى قيام الامبراطورية المشتركة بين الفولاني وبقية جيرانهم المسلمين من قبائل الهوسا سنة 1802.

هذا طريق «الرقعة الفيلاني» إلى ليبيا.

والمرء يستطيع بالطبع أن يتابع طريق «الكعب العالي» بنفس الدرجة من الوضوح، فليس ثمة حذاء في العالم ـ بما في ذلك الحذاء الذي تلبسه حرم شيخ المحلة ـ هبط حقًا من السماء، ولكن اللعبة في بلدنا لا تخص الرغبة في معرفة مصادر «تراثنا النابع من صميم الشعب»، بل تخص فصاحة شيخ المحلة العالم ببواطن الأمور، الذي يريد أن يجلس في بنغازي، ويغطي كل موضع أبرة من جثة «حرمه» بعد أن يقنع أطفاله البسطاء بأن ذلك بالضبط هو ما جاء في عقيدتنا وتقاليدنا.

واللعبة ليست غير مجدية فحسب، بل أنها أيضًا لا أخلاقية. فالرجل الذي يرتكب رذيلة الكذب تجاه أطفاله وعقيدته لا يستطيع قط أن يمتلك في حوزته شيئًا يستحق صفة القداسة، ولكنه يسارع على الدوام إلى تعويض هذا النقص بمزيد من الأكاذيب االفصيحة التي تتحرك عادة تحت سطح التيار الفكري داخل المجتمع بأسره.

Twitter: @alqareah

وأنا أريد أن ألفت انتباهكم هنا إلي ظاهرة «الفخر بالنفس» التي سادت معظم الثقافات البدائية في محاولة يائسة لتعويض النقص الناجم عن اندحار الفضيلة. فالرجل المتواضع الإمكانيات داخل سجنه الفكري المغلق لا يملك تحت يده ثمة ما يستطيع أن يمنحه الثقة في نفسه سوى الشعر وحده. إنه لا يجد كفايته من «التفاخر» في حصيلة الفكر المجرد المقام بأسره على قاعدة إنكار الذات والتواضع المطلق في مواجهة العجز الإنساني، ولايجد كفايته أيضًا في الفكر الديني الذي يضعه عند نقطة واحدة مع كل فرد في العالم، ولكنه يجد كل ما يحتاجه من المباهاة بقدراته الخاصة وعبقريته وتفوقه في عقود الذهب التي يعلقها في عنق امرأته وفي جرده الحرير وعربته الطويلة وركابه الفضي وبيته المزدحم بالخدم والشحاذين وفي أغاني «العلم» التي يتبادلها مع الرجال الآخرين على مائدة الشراب.

والدراسات الحديثة تضع ظاهرة «التفاخر» بمثابة مقياس غير قابل للخطأ في تحديد مدى العقم الفكري الذي يعانيه مجتمع ما. فاللعبة تضم كل شيء في داخلها، من صراخ الفقي على منبر الجامع بأن أحدًا لا يدخل الجنة إلا بوصيته إلى صراخ العجوز الليبية في مقدمة الزفة بأنها جاءت لكي «تزف» أفضل عروس في العالم إلى الحمال صاحب الحمار الأبيض.

كل مخلوق يصرخ بملء رئتيه.

وكل مخلوق يريد أن يضع في أذني امرأته تكليلة ذهبية، ويضع فوق حصانه سرجا مزينا بمسامير الفضة، ويخرج لشراء الخضار مع خادمه الحافي القدمين، ويصبح من أعيان

Twitter: @alqareah

المدينة لكي يشار إليه بالبنان ويقال عنه إنه يقف على شنباته الصقر.

والمشكلة بأسرها مجرد محاولة لتعويض مركبات النقص.

فالرجل الذي لا يملك في حوزته سوى شنباته لابد أن يضع فوقها صقرًا من باب الرغبة في زيادة الخير. والرجل الليبي الذي عاش طوال القرون الأربعة الأخيرة تحت وطأة الأمية في قفص شبه مغلق مع جميع الوجوه لا يستطيع أن يجد في العالم ثمة ما يدعو إلى الثقة أكثر من «الجربي والرقعة» والجلوس على ركبة ونصف لتبادل الأطراء مع جيرانه في المنط.

فإذا فقد وعيه تحت وطأة البوخة(*)، فأن أول ما يفعله هو أن ينسى ـ تقاليدنا الاصيلة ـ ويعلن على رؤوس الاشهاد إن قلبه قد احترق «بنار الرقعة الفيلاني»، وأن «صاحبة الحزام العريض» قد خلبت لبه إلى حد الموت، وإن الجربي ـ الذي كنا نعتقد إنه رمز العفة ـ قد جعل نيران الحب تلتهب في جوفه حتى أنها أحرقت «الحوت في ذيل البحر».

هذا يحدث تحت وطأة الخمر. أما في وضح النهار، أمام الله والجيران، فإن الرجل الليبي يعتبر الجربي رمز العفة، ويعتبر السيدة التي تخرج بدونه نصرانية سقطت فريسة «الفكر المستورد» ويرفع صوته في الجريدة المحلية لكي يطالب

(*) البوخه: نوع من الخمور.

والنيهوم، في هذه الحلقة، يشير إلى عادات سادت في المجتمع الليبي ثم اختفت بحكم تطوره بمرور الإعوام وانتشار التعليم، وهي كانت لصيقة به في مرحلة طفولة النيهوم وجيله إلى أوائل الستينات تقريبًا من القرن العشرين.

Twitter: @alqareah

«بايقاف موجة الانحلال ومحاربة الفساد صونًا لتراثنا المجيد وخصالنا الحميدة الأصيلة».

والمرء يستطيع أن يرى حقيقة اللعبة في كلمة «المجيدة والحميدة والأصيلة»، فالشعر هنا هو الذي يلعب دور المنطق لأن كل شيء داخل الكتلة مقام على أكتاف عرائس الشعر، ولكني لا أريد أن أجعل هذه الأشارة العابرة نهاية المطاف فيما يخص ظاهرة عقمنا الفكري، فالواقع إن اللعبة أكثر وضوحًا من أن تقف عند حد الألفاظ الشعرية.

إن معظم عاداتنا مقامة على ظاهرة الإعلان الشعري الذي يهدف إلى إرضاء مركبات النقص ويهدف إلى تحقيق «التفاخر الإجتماعي» على مستوى الكتلة بأسرها.

فالعرس الليبي ـ وهو درة تقاليدنا الأصيلة ـ مقام كله فوق القاعدة القائلة «أنظر، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا» لتحقيق أبعد غاية ممكنة وراء ظاهرة «التفاخر» في ثقافتنا غير المفتوحة. فالعجائز يحملن سلال العرس على رؤوسهن، كل عجوز فوق رأسها «قفة» ويخرجن لاستعراض ثروة العريس، مشيًا على الأقدام من أي بقعة في المدينة إلى بيت العروس. وإذا كانت البيوت متجاورة فإن عجائزنا الطيبات القلوب يذهبن ـ على أي حال ـ للطواف حول المدينة ثم العودة إلى نفس الزقاق في محاولة متعمدة لإتاحة الفرصة أمام كل مواطن في المدينة لكي يرى بعيني رأسه عدد «العلائق» وعدد البدل والسجاجيد والطنافس والرداء الحصيري والخلخال وطشت الفسيل وبقية الغنائم التي أحضرها العريس في مقابل عروسته. فإذا انتهت هذه المهمة خلال ليلتي الرمي والحنة،

Twitter: @alqareah

وعرف كل مواطن في المدينة أن العريس الذائع الصيت، يملك إلى جانب السمعة الحسنة والصقور الواقفة فوق شنباته زيرًا كاملا من الدنانير الذهبية فإن العروس تستعد على الفور للقاء هذا الفارس الفاحش الثراء عبر مسيرة استعراضية أخرى ـ مثل مسيرة السيرك المتجول ـ تشترك فيها البطانية الحمراء للفت انتباه المارة إلى جانب الزغاريد والبالونات وأبواق عربات الأجرة وبعض أغاني العلم.

ثم تبدأ ملحمة الدخلة.

وتتجمع العجائز حول غرفة الحب في انتظار بقعة الدم، فإذا أنجز العريس هذه المهمة في لمح البصر فأن ذلك بالطبع سوف يضاف إلى رصيده من فضائل الرجولة التي يستطيع أن يفاخر بها في أوقات الأزمة، أما إذا أصابه الدوار وفقد أعصابه أمام المتفرجين فإن أحدًا لن يمنحه لحظة سلام طوال الليلة بأسرها حتى يعود رغم أنفه ويمنح والدة العروس فرصة الطواف حول المدينة ـ حتى في أخر الليل ـ حاملة دماء ابنتها العفيفة فوق رأسها عبر محاولة أخرى للحصول على بعض «الفخر» الاجتماعي.

العرس الليبي بأسره مقام على هذه القاعدة.

والمرء يستطيع أن يرى بعيني رأسه أن اللعبة هنا لا تخص «التقاليد الاصيلة والخصال الحميدة والشهامة والنبالة» بقدر ما تخص حلول ثقافة متأخرة لمشاكل مركبات النقص والعقد النفسية. فالتفاخر الاجتماعي بالمال والجاه والقبيلة حل يقع على سطح العالم لاحساس الإنسان بالضآلة والعقم، وهو بالضبط ما استطاع الإنسان الليبي أن يضع عليه يده عبر

Twitter: @alqareah

محنته الفكرية طوال القرون الماضية. أما الحفر المرهق لتحقيق الرضاء النفسي بطريق الإبداع والأصالة في جدار الفكر، فقد ظل بالطبع بابًا مغلقًا أمام إنسان المنطقة حتى الآن.

وأنا أعرف أن هذه النقطة حساسة للغاية.

وأعرف أن تعرضي لنقاشها هنا سوف يجعلني لقمة سائغة في أفواه الرجال الحكماء الذين دأبوا على اعتباري سوسة تنخر في عظام الأمة وتعمل على إهانة مقدساتها لحساب المستشرقين، خصوصًا بعد أن ثبت الآن بفضل اجتهاد بعض الصحف المحلية ومنظمة الكتاب الشرفاء أنني جاسوس إسرائيلي يعمل بالتعاون مع الشيطان في خدمة الاستعمار والصهيونية.

هذا كله أعرفه. ولكني لا أستطيع أن أفعل حياله شيئا سوى أن أتركه لارادة الله، فالجري وراء فضائح شيخ المحلة يستغرق في الواقع كل دقيقة من وقتي، ثم انني مازلت حتى الان في منتصف الطريق إلى المذبحة الحقيقية.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

5

.... وقلت لكم أن «تقاليدنا الأصيلة» التي قضى شيخ المحلة حياته في الدفاع عنها ضد ما يدعوه «بالفكر المستورد» هي أيضا بدورها مجرد فكر مستورد وصلت إلى بلادنا في أسوأ الظروف الحضارية وأكثرها أثارة للحزن، وقلت لكم أن الدهليز الشعري الذي يحيط بهذه التقاليد ويخلع عليها صفات «الاصالة والنبالة والمجد» فوق معظم الصحف المحلية هو محاولة التمويه التي لجأت اليها كل الثقافات المتأخرة لتغطية أحساسها بالنقص.

فلغة الشعر هي الوسيلة الوحيدة في العالم التي تستطيع أن تحقق انتصارًا خاطفًا وخاليًا من التعقيد على لغة المنطق والمرء لا يحتاج هنا إلى شيء آخر سوى أن يبل شنباته بقليل من البصاق ثم يعتلي المنبر ويطلع من جرابه خطبة فصيحة مؤداها «اننا وحدنا خير أمة في العالم وتقاليدنا أفضل تقاليد وعاداتنا أصيلة ومجيدة لأنها نبعت من صميم الشعب الملىء

Twitter: @alqareah

بالخصال الحميدة إلى حافة أذنيه » فإذا دوت القاعة بالتصفيق، وأصبح المستمعون «شعلة من الحماس» والعواطف المتفجرة، فإن أحداً بالطبع لا يستطيع أن يعتلي ذلك المنبر لكي يجادلهم بحجج المنطق دون أن يفقد سمعته ورأسه أيضًا.

إن المنطق علاجه الشعر. هذه هي الوصفة الرخيصة التي لجأت اليها جميع الثقافات البدائية للدفاع عن بقائها. فأنت ما دمت لا تعرف أنك على خطأ، وما دمت لا تعرف كيف تثبت أنك على صواب، فإن أفضل وسيلة لديك لاسكات خصمك إلى الأبد هي بالطبع أن تنظر إليه شزرًا، وتتهمه بأنه عميل للإستعمار ثم تلقي فوق رأسه قصيدة فصيحة عامرة بكلمات «الحميدة والأصيلة والنبيلة والمجيدة» حتى ترى بنفسك أنه قد مات من الملل.

هذا حدث في جميع الثقافات والعصور.

ويحدث الآن عندنا على كل المستويات، ويسيطر على طريقتنا في نقاش مشاكلنا الفكرية والسياسية والاجتماعية، ويجعل كل محاولة شريفة للخروج من ورطتنا المفتقرة إلى المنطق مجرد عمالة لحساب إسرائيل أو لحساب الشيطان، ويترك شيخ المحلة المعبأ بالعقد النفسية يقودنا من أنوفنا في حلقة مفرغة.

ونحن نخسر كثيرا بالدخول في هذا الزقاق المسدود.

فمركبات النقص مهما حاولنا أن نساندها بالأشعار والخطباء وأقوال الصحف المحلية . تظل في نهاية المطاف مجرد مركبات نقص، ومسيرتنا المقامة على قاعدة الفصاحة وحدها تظل أيضا مجرد إضافة للوقت الثمين في مذبحة سوق عكاظ العامر بالسماسرة.

Twitter: @alqareah

إن الظاهرة الفكرية التى تلوح على الدوام وراء ثقافتنا المعاصرة في ليبيا هي ظاهرة مشلولة مقامة على أساس الاعتزاز بتراث ملىء بالأخطاء يفرض نفسه على مسيرتنا باسم صيانة «مقدسات آبائنا وجدودنا» دون أن يمتلك من وسائل الاقناع شيئا على الإطلاق سوى الألفاظ الشعرية غير المحدودة التي ترد في خطبة شيخ المحلة لقهر المنطق بلغة الشعر.

أما الحقيقة من الداخل، فإن ذلك التراث نصف المقدس ـ مع جميع الاشعار والخطب ـ مجرد مجموعة من الحلول البدائية لمشاكل المواطن الليبي تجاه عقده الجنسية وافتقاره إلى قوة الإبداع العقلي واحساسه بالعقم داخل ثقافته الإقطاعية طوال القرون الفجعة القبح التي مرت على بلادنا.

فالمرء لا يلف «حرمه» في عباءة لانه يعرف أنه يعيش في أمة تمتاز «بالخصال الحميدة»، بل لأنه يعتقد أن كل مواطن آخر على مد العين ينتظر فرصته لكي يجعله مضغة في الأفواه.

والمرء لا يضع دماء العروس فوق رأس والدتها ويتركها تطوف بها المدينة وتصرخ بملء رئتيها لأنه يبحث عن رضاء الله باظهار دماء العفة، بل لأنه يبحث عن شيء يفاخر به عبر عالمه المجدب.

والمرء لا يدعو العيساوية(*) إلى بيته ويتركهم يدقون

(*) العيساوية: طريقة صوفية معروفة في ليبيا وبلاد المغرب العربي، والتسمية تعود إلى مؤسسها (محمد بن عيسى).

Twitter: @alqareah

الدفوف طوال الليل لأنه يريد من الله أن يدخل موتاه في الجنة، بل لأنه يريد من جيرانه الأحياء أن يعرفوا إن موتاه قد ذهبوا فعلاً إلى الجنة بعد أن اشترى لهم تذاكر الدخول من شيخ العيساوية.

والمرء لا يبني ضريحًا أبيض لرجل ميت ويعلق فوقه الراية ويحرق عند رأسه الشموع لأن قلبه عامر الايمان، بل لأنه لا يستطيع أن يتصور أن الله أقرب اليه من جاره المرابط.

والمرء لا يبني مجتمعه على أساس التفاخر بالقبيلة والعائلة والسرج المطعم بمسامير الفضة والصقر الواقع فوق شواربه والتكليلة الذهب والحج سبع مرات، لأنه وجد ذلك في كتابه السماوي بل لأنه لم يجد في ذلك الكتاب شيئًا يستطيع أن يظهره لكي يفاخر به الآخرين. فمادام الناس سواء من الداخل، فإن الحل بالطبع أن يلجأ المواطن إلى الخارج ويثبت لنفسه أنهم ليسوا سواء، على الأقل، في عدد الصقور التي تجلس على شنباتهم.

والمرء لا يعتمد على الأشعار في إظهار فوائد «التقاليد الأصيلة والعادات الكريمة» لأنه شاعر بالسليقة، بل لأنه لا يملك حجة منطقية واحدة تستطيع أن تقف إلى جانبه سوى شيطان الشعر.

والمرء لا يهرب من مواجهة واقعة باغراق نفسه في مدائح الصحف المحلية وصغار الخطباء لأنه يعتقد حقًا أنه «خير أمة أخرجت للناس» بل لأنه يعرف في داخله أن واقعه قبيح إلى حد لا يطاق.

واللعبة تمضي في هذا الاتجاه إلى الأبد، فليس ثمة نهاية

Twitter: @alqareah

للدهليز المغلق الذي سقط فيه مسيرة الفكر عندما تختار الامة طريق الإثارة الشعرية لنقاش مشاكلها وتقرير حلولها. إن الخطوة الأولى تبدأ على الفور بمجرد أن يصبح الشعر ـ وليس المنطق ـ هو قاعدة النقاش، ثم تنطلق القافلة العمياء في مسيرة لا متناهية عامرة بالخطباء وحدهم. فالشعر يحتاج إلى «الفصاحة» وليس إلى العمل الفكري المرهق الذي يقع دائمًا على بعد كاف من سطح الألفاظ المجردة.

إن معظم «تقاليدنا الأصيلة» فكر مستورد.

هذه حقيقة يمكن اثباتها شبرًا بعد شبر قبل أن يفرغ شيخ المحلة من القاء خطبته ضد الفكر المستورد والحقيقة الثانية أن معظم هذه التقاليد زرعت نفسها في أرضنا تحت وطأة العقم الفكري والعقد النفسية ورواسب الحضارة القديمة في المنطقة. وليس ثمة شيء واحد، يملكه شيخ المحلة في بيته أو وقعت عليه عيناه في ليبيا بأسرها لا يستطيع المرء أن يتتبع طريق وصوله إلينا من الخارج في قافلة من الحمير والعبيد.

وأنا أعني كل شيء حقًا، من الرحي التي بقيت في بلادنا منذ العصر الحجري إلى عباءة أمنا نصف المقدسة ومسبحة شيخ المحلة وضريح المرابط وفول عاشوراء(*) ونعجة العيد وليلة الدخلة وعمامة الفقي وشموع النذر وليلة الحنة وذبيحة السبوع ورباط الارملة(**) ووشمة العروس والرقعة الفيلاني

(*) فول عاشوراء: جرت العادة في ليبيا احتفاء بيوم عاشوراء أن يطهى الفول والحمص وأطعمة أخرى في اليوم التاسع والعاشر من شهر محرم، ولازالت منتشرة إلى اليوم. وربما تعود أصولها قديمًا إلى أيام الفاطميين في شمال أفريقيا.

(**) رباط الارملة: حداد المرأة على زوجها عقب وفاته، وشرعًا تستغرق مدته أربعة أشهر وعشر أيام وفقًا لقوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ الآيه «٢٣٤» سورة البقرة.

Twitter: @alqareah

والجنازة بالعروسية(*) والباب الجواني والمربوعة(**) التي لا تدخلها النساء والكلاب.

هذا كله جاء إلينا من الخارج.

ومثله أيضًا مرتين، ولكن كلمة «من الخارج» لا تعني من السماء ـ كما يزعم شيخ المحلة في خطبة الجمعة ـ بل تعني من قرطاجنة ومن قبائل البربر والزنوج وحضارة مصر الفرعونية، ومن الأتراك العثمانيين الذين اخترعوا وظيفة شيخ المحلة بالذات.

وإذا قرر المرء أن يضع كل شيء في مكانه، ويعيد كل بضاعة مسروقة إلى أصحابها الأصليين، فإن تقاليدنا الأصيلة وعاداتنا «الكريمة النبيلة» ستعاد بأسرها داخل سلال متفرقة إلى الشعوب التي سكنت منطقة شمال أفريقيا والصحراء الجنوبية في الفترة الواقعة بين العصر الحجري وبين الأسبوع الماضي، وسوف يرى المرء بعيني رأسه أن معظم هذه الشعوب كانت تعيش ثقافات وثنية متأخرة لا تستحق نصف قصيدة من شعر شيخ المحلة الردئ.

فماذا يقال في صحفنا المحلية عن «تقاليدنا الاصيلة»؟

وماذا يعني المرء بكلمة «الأصيلة» على أي حال ما دام شكل

(*) الجنازة بالعروسية: العروسية من الطرق الصوفية المعروفة في ليبيا وبلاد المغرب، تنسب إلى مؤسسها أبو العباس أحمد العروس، وهي فرع من فروع الطريقة الشاذلية الكبرى.
وفي ليبيا يقوم اتباع هذه الطريقة، في بعض الأحيان، بتشييع جنائز منتسبيها بالدفوف الذي يصحبه ذكر وأدعية.

(**) المربوعة: في ليبيا تعني حجرة استقبال الضيوف من الرجال، وتقع بعد مدخل المنزل.

Twitter: @alqareah

التاريخ يشير بوضوح تام إلى أن المسيرة بأسرها مجرد حلقة واحدة من حلقات الفكر المستورد؟

إن الألفاظ الجوفاء ـ حتى إذا سقطت من فم شيخ المحلة نفسه ـ تظل في نهاية المطاف مجرد ألفاظ جوفاء، وكلمة «الأصيلة» مادامت لا تعني أنها أصيلة حقًا تظل أيضًا مجرد كلمة بلا مفهوم. فالمرء إما أن يعني ما يقوله أو يصبح مهرجًا طويل اللسان فقط. وما دامت تقاليدنا لم تولد في بلدنا لم تنبع من صفوف شعبنا، فأنها بالتأكيد فكر مستورد اتخذ طريقه الينا نتيجة ظروف ثقافية خاصة جعلت المواطن الليبي عبر محنته الفكرية يلجأ إلى أية حلول يجدها في طريقه.

ومحنة مواطننا إنه كان مفتقراً إلى العون الفكري.

وكان ضحية نظم اقطاعية غير واعية ظلت تجثم فوق صدره في مختلف حقب التاريخ وتدفعه إلى أسفل حتى تركته في نهاية المطاف مجرد قزم أمي لا يملك في حوزته سوى قوة قبيلته وقوة مرابطه الميت وشنباته المحزنة التي يجلس لكي يفتلها في المقهى من باب أظهار الرجولة إلى جانب ذكرياته عن ليلة الدخلة.

هذا ما حدث للمواطن الليبي الذي ترك لنا «تقاليدنا الأصيلة» وراءه وذهب محمولاً على الأعناق إلى الجنة. مجرد فراغ فكري ممتد على طول القرون الخمسة الماضية وخاليًا من الاضاءة والأصالة معًا. وإذا كان ثمة من يعتقد أن الدين الإسلامي كان على الدوام بمثابة «نبراس» في طريق مواطننا التائه ـ كما يقال عادة في خطبة الجمعة ـ فإن واقع التاريخ الديني ما يزال قادرًا على أن يثبت له الآن أن «الدين» بالذات ـ

Twitter: @alqareah

سواء كان ذلك فيما يخص الإسلام أو المسيحية أو غيرهما . هو على وجه الدقة أول ضحية لأي نظام إقطاعي، وأول سلاح يضعه الطاغية في خدمته لكي يضىء به الطريق الخطأ ويترك الإنسان يتوه مرتين.

الدين داخل أي نظام اقطاعي مجرد أسد محنط في قصر السلطان مهمته أن يرهب كل مواطن في المملكة ما عدا بالطبع السلطان نفسه.

Twitter: @alqareah

6

.... وقلت لكم إن الدين ليس دائما نبراسًا يضيء طريق الإنسان، بل إنه داخل أي نظام اقطاعي يفقد معظم آفاقه الاصيلة ويتحول إلى إداة قاتلة في يد السلطان الذي يعمل بلا انقطاع لمسخ رعاياه إلى أبقار للحليب. وقلت لكم أن افتقار الفكرة إلى ظاهرة الديمقراطية يبدأ بالضبط عندما يفقد الإنسان علاقته المباشرة بخالقه تحت ضغط الظلم السياسي ويجثو على ركبتيه مستسلمًا لسيده السلطان وسيده المرابط وملوك الجن وأعمال السحرة.

عندئذ يصبح الدين جزءًا من الشعوذة.

وتتحول الفكرة القائلة إن الاعمال بالنيات إلى فكرة مضادة مؤداها إن الأعمال بالمظاهر، ويخلي الإنسان قلبه من الايمان لكي يبرزه في الخارج عن طريق العمامة والجبة الخضراء والمسبحة الطويلة.

Twitter: @alqareah

هذا حدث في جميع الثقافات الإقطاعية.

وحدث أيضًا في ليبيا ومنحنا تراثًا ضيق الأفق خاليًا من روح الوحدانية الحقة لا يمتاز بشيء عن أي تراث وثني أو شبه وثني عرفته الحضارات القديمة سوى خطب شيخ المحلة وبعض أشعار الدرجة الثانية التي تركها لنا دراويش المنطقة.

وأنا أزمع هنا أن أضع بين أيديكم مجموعة الحيل «الدينية» التي ازدهرت داخل تقاليدنا الاصيلة باسم الاسلام نفسه، وأتمنى أن ألفت نظركم إلى أن أحدًا في العالم ـ بما في ذلك شيخ المحلة ـ لا يملك دليلاً واحدًا على أن هذه الحيل لها أية علاقة بالإسلام، ولكن المرء بالطبع يحتاج إلى الأدلة في ثقافتنا المتأخرة بقدر ما يحتاج إلى قافية الميم وبعض الفصاحة في اتهام الاخرين بالالحاد والتبعية.

فدعونا نتفرج على مسرح الحواة الدينيين ونطلع لهم زرافة من قبعتنا.

إن الملائكة الذين يقول عنهم شيخ المحلة أنهم يجلسون في السماء ويحملون عرش الله في انتظار الأمر لكي يهبطوا على الارض ويقتلوا أعداء المسلمين بالسيوف النورانية لا علاقة لهم بما يتضمنه النص القرآني القابل لأكثر من تفسير واحد، ولكنهم يملكون علاقة مباشرة بمحاولة الثقافات الإقطاعية للفصل بين الله وبين الإنسان عن طريق الملائكة ثم المرابطين ثم السلطان ثم رجل الدين الطيب القلب.

فالتفسير الصحيح لا يؤدي هذه المهمة.

وإذا قرر المرء أن يلتزم جانب الوحدانية الحقة ويفسر كلمة

Twitter: @alqareah

الملائكة باعتبارها اصطلاحًا خاصًا لظواهر غير معروفة لحواسنا مثل ظاهرة «قانون الجاذبية» الذي نعيش في داخله دون أن نحس به، والذي ليس له شكل أو وزن أو زمن، فإن المرء لا يحقق بغية سيده السلطان، لأن قانون الجاذبية لايفصلك عن الله بطبقة من المخلوقات بل يربطك بعالمه كله. وهذا بالطبع آخر ما يستطيع السلطان أن يتمناه لرعيته.

إنه يحتاج إلى الطبقية ويحتاج إلى أن يصبح الكون مجرد قصر ملكي آخر تجلس الملائكة في أعلى طابق منه ويحتل المرابطون الطابق التالي لكى يستطيع أن يقنع رعيته بأن جلوسهم في الطابق الارضي أمر منطقي في طبيعة الخلق نفسه. وأنا أريد أن أقول هنا بوضوح ـ اتقاء لسوء الفهم ـ إن الايمان بوجود الملائكة شيء، وتصورهم على هيئة مخلوقات محددة بأبعاد المكان والزمان شيء آخر مختلف كلية، وأريد أن أقول أيضا إن الوجود الوحيد المعترف به في الإسلام خارج هذه الأبعاد هو وجود الله وحده.

فماذا حدث داخل الثقافة الاقطاعية التي نقلت الإسلام إلى ظل الملك الوراثي أربعة عشر قرنًا كاملة؟

في بداية الأمر احتل الملائكة الطابق الأول كما حدث بالضبط في الميثولوجيا اليونانية، ثم جاءت فكرة القديس من مزبلة الكنيسة ودخلت إلى بلادنا تحت قناع «ولي الله الصالح» لكي تفصل الله عن الانسان بانسان آخر وليس بطبقة من المخلوقات النورانية فحسب.

وهكذا فتح الشيطان بابه الجهنمي باسم الدين لكي يضع السلطان أيضًا في الفجوة القائمة بين الله وبين الإنسان ثم

Twitter: @alqareah

يضع تحته رجل الدين الذي نال هذه المرتبة مقابل اعترافه بأن السلطان يحكم باسم الله فيما ازدادت الهوة اتساعًا حتى ابتلعت الانسان نفسه في نهاية المطاف ووضعته في خدمة الفقهاء السحرة القادرين على حمايته من عفاريت الجان.

هذا سلم الثقافة الاقطاعية.

مجرد فجوة مفتعلة بين الله وبين مخلوقاته صنعها السلطان برشوة الفقهاء وفلاسفة الأديان ثم أصبحت ملاذًا لكل الدجالين والمشعوذين والسحرة لأنها منذ البداية فجوة غير طبيعية، ولأن الله يحرس عالمه بقوانين خارقة الشمول والنفاذ لا تخطئ قط في إنزال العقاب بالإنسان بمجرد أن يفقد طريقه.

وقد فقد الإنسان المسلم طريقه في ليبيا طوال تاريخه الاقطاعي.

وجلس في تكايا الصوفيين يدق الدفوف والصاجات في انتظار الصدقة، وجلس يقرأ القرآن على رؤوس الموتى مقابل كسرة الخبز، وجلس في المربوعة لقراءة الاوراد على أرواحهم مقابل صحن من الارز، واتخذ مكانه على رصيف سوق الجريد(*) لكي يكتب الأحجبة ضد العين وكساد التجارة مقابل خمس بيضات، ووقف يتشقلب على رأسه أمام سرير المريض لكي يطلع من أصبغه عفريتًا كاملاً، دون أن يخطر بباله أن اعتبار الكون تكية صوفية لا يعني في الواقع شيئًا من الإيمان

(*) سوق الجريد: من الأسواق الشعبية القديمة والمشهورة في بنغازي، ويقع في وسط البلد، وربما تعود تسميته إلى أن سقفه كان في بداية تأسيس السوق من سعف النخيل.

Twitter: @alqareah

الحقيقي، وأن الله ـ لو خلق عالمنا على هذا النحو ـ لانهار فوق رؤوسنا منذ أول يوم.

فهل كان الدين نبراسا يضيء طريق الانسان؟

وهل حقق كتابنا السماوي ابعاده الحقيقية في تراثنا «الأصيل وتقاليدنا الأصيلة»؟ أم أن محنة العقم الفكري تطاولت إلى حد تسخير كتاب الله في خدمة السلطان والفقي والسحار، وأعادت مسيرتنا الثقافية إلى الوراء، حيث كنا نقف بالضبط قبل نزول القرآن؟

انا أعرف اكثر من اجابة ملهبة للعواطف.

وأعرف أن شيخ المحلة يستطيع هنا أن يهز لي رأسه حتى تسقط عمامته على عادة أبي زيد الهلالي ويعلق في عنقي تهمة الإلحاد والتبعية والعمل لحساب المستشرقين معلنًا بأعلى صوته أنني ما دمت لا أفهم تفسيره لكلمة الملائكة، فإن ذلك بالضبط دليل حقيقي على أن الله يريدني أن أذهب إلى جهنم، وإن الدين ـ رغم أنفي ـ سيظل نبراس المواطن الليبي كما ظل دائمًا منذ عصر الهلالية وأنا أقول إن شاء الله.

فالذهاب إلى جهنم لا يتم بطلب من شيخ المحلة على أي حال. أما إن الدين سيظل نبراسًا في طريق الإنسان الليبي وغير الليبي على السواء فهذا في الواقع ما أؤمن به، وأعمل من أجله أيضًا رغم فظاعة الظروف التي تسد سبل هذا العمل، ولكن الدين ليس هو خرافات شيخ المحلة، وليس فصل الإنسان عن ربه بالملائكة والمرابطين(*) والشحاذين، وليس الجلوس على باب وزارة الاوقاف لقبض أسعار خطب الجمعة.

(*) قبور المرابطين: قبور الأولياء. والمرابط في ليبيا تعني (الولي) أو (رجل الله).

Twitter: @alqareah

الدين علاقة مباشرة بين الله وبين خليفة الله في الأرض.

وليس ثمة نتيجة واحدة لظاهرة التدخل في هذه العلاقة من جانب أي إنسان آخر سوى إصابتها بالشلل وإحداث فجوة مفتعلة في جدارها، وعزل الإنسان عن ربه لكي يموت كالشحاذ على باب المرابط والسلطان والخصي والسحار(*).

هذه النتيجة لم أبتكرها أنا.

بل هي معروضة للفرجة في وضح النهار داخل ليبيا بأسرها الآن وفي العام الماضي وفي العام القادم أيضًا.

وإذا كان شيخ المحلة قد فقد عينيه في موسم الجدري، ولم يعد بوسعه أن يرى قباب الاولياء المزروعة في ليبيا من أقصاها إلى أقصاها، وقبور المرابطين المقامة في وسط الطريق، وزوايا الصوفيين البلهاء، ومكاتب باعة الأحجبة وضاربي الرمل، ووشمة السيدة الليبية التي تحميها من العين بالإضافة إلى الحوتة والحصن السوداني. إذا كان شيخ المحلة قد فقد عينيه في موسم الجدري، فإنه مازال قادرًا على سماع دفوف الحضرة ـ حتى إذا كان أصمًا أيضًا ـ وما يزال قادرًا على أن يسمع قراء الاوراد في سقيفة جاره، وتلاوة القرآن على رؤوس الموتى، وحلقات الذكر، وصراخ الفقهاء لإخراج ملك جني كامل الهيئة من إصبع مواطن مسلم.

هذا كله يحدث في ليبيا الآن وغداً أيضًا.

وهذا كله دليل أكثر من واضح على أن الدين ـ كما يفهمه شيخ المحلة ـ لم يكن قط نبراسًا على طريق أحد، بل كان حرفة

(*) ـ السحّار: الساحر.

Twitter: @alqareah

روتينية يلجأ اليها الشحاذون والحواة لكسب رضاء السلطان وخداع المارة.

وأنا مازلت أزمع هنا أن أتابع هذه اللعبة بالتفصيل.

ومازلت أريد أن أحدد ملامح «الإقطاعية الدينية» داخل حفنة التقاليد الأصيلة والمجيدة. بالطبع. التى جاءت إلى ليبيا لكي تحملنا . رغم أنوفنا . إلى الجنة فالأسد المحنط فى قصر السلطان يعود هنا إلى صفوف الشعب لابساً عمامة وجبة خضراء لكي يؤدي دور قردة الحاوي.

والمرء لابد أن يسرح وراءه لبعض الوقت لكي لا تفوته متعة العمر.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

7

.... وقلت لكم أن تاريخ الاديان يشير إلى أن النص الديني وحده لا يستطيع أن يحقق أبعاده الفكرية إلا إذا أتيحت له فرصة التفسير المحايد الخالي من شوائب الثقافات السابقة. أما إذا وقع النص الديني فريسة التفسيرات المستمرة من المفهوم المحلي للكلمة، فإن النتيجة التي لا يمكن تجنبها قط هي أن تلبس الثقافة المحلية قناع الدين خلال عمليات التفسير والاضافة وتسخره لخدمة أهدافها القديمة لكي يصبح درعًا للمحافظة عليها بدل أن يصبح أداة لتغييرها.

هذه الظاهرة هي التي تكمن وراء إساءة التفسير لمعظم النصوص الدينية، ووراء التحريف غير المتعمد وإخضاع كلمات الله لمفهومات الثقافة السائدة، وأشهر مثال في هذا الصدد متمثل حتى الآن في الديانة المسيحية الكاثوليكية التي فسرت قول المسيح «أنا ابن الله» بمفهوم الكلمة السائدة في الميثولوجيا اليونانية، وأقرت الترجمة القائلة «أنا ولد الله»، دون أن يفطن

Twitter: @alqareah

إلى أن «الكلمة» شيء ومفهوم الكلمة شيء آخر مختلف كلية.

ولايضاح طبيعة هذا الفرق سألفت نظركم إلى كلمة «السماء» التي وردت في معظم النصوص الدينية. فالكلمة في ذاتها لا تعني الفضاء الازرق الممتد فوق رؤوسنا، ولكن ذلك المعنى فرض على الكلمة بواسطة مفهومنا الثقافي السائد، فنحن «نتصور» السماء بمثابة «غطاء العالم الازرق» ونحن نفهم هذا المعنى وحده عندما نسمع الكلمة أو نقرأها دون أن نفطن إلى أن هذا التصور هو حصيلة اجتهادنا الفكري، وإن الكلمة نفسها مجرد دلالة قابلة لأن تعني أي شيء. فإذا زادت حصيلتنا من المعرفة وتعلمنا عن طريق سفن الفضاء، أن غطاء العالم الازرق مجرد غلاف جوي يقع على ارتفاع قريب من الأرض فإن «مفهوم» كلمة السماء يتغير تلقائيًا لكي يضع في حسابه هذا الفكر الجديد ويصبح إشارة مختلفة إلى شيء آخر غير «السماء» التي عرفها أجدادنا واعتقدوا أنها غطاء مكون من سبع طبقات وملئ بالملائكة.

هذه حقيقة بالغة الأهمية أريد أن أطرحها هنا بمثابة قاعدة للنقاش القادم. فالقول بأن النص الديني هو بالضبط تفسيره اللغوي قول خاطئ يتجاهل كلية أن التفسير اللغوي نفسه خاضع لمفهومات الثقافة السائدة، وإن الكلمة الواحدة لا تعني شيئًا واحدًا في جميع العصور بل يتغير معناها باطراد ووضوح طبقًا لزيادة المعرفة الانسانية.

واللغة - أية لغة - تنقسم في هذا المجال إلى قسمين واضحين، الأول يخص الألفاظ ذات الدلالات المادية التي لا تتغير من الخارج مثل كلمة إنسان وأسد ومطر وبخار، والثالي

Twitter: @alqareah

يخص الألفاظ ذات الدلالات غير للمادية مثل كلمة «روح وسماء وملالكة وشياطين» وهذا القسم الثاني هل الذي يخضع كلية لمفهومات الثقافة السائدة ويتغير معها وتختلف معانيه من عصر لاخر.

ولغة النص الديني - أي نص ديني - تضم بالطبع القسمين معًا، ولكن قاعدتها الأصيلة هي ألفاظ القسم الثاني وحدها، وهي أيضا نافذتها المفتوحة للمفسرين واللصوص وباعة الخردوات المحلية.

فدعوني أضع بين أيديكم هنا أثار هذه الحقيقة المسطحة في تقاليدنا الأصيلة. وانظروا بأنفسكم ما إذا كان الدين نبراسًا في طريق الانسان، أم كان أداة الثقافات المحلية المتسمة بالتأخر والجهل لكي تفرض نفسها على شعبنا باسم الله نفسه. ولا تتركوا كلماتي تخدعكم قط، فأنا إما أنني أتحدث عن واقع ملموس يستطيع المرء أن يحسه بكلتا يديه، وإما أنني أعمل لحساب المستشرقين وأرتكب تجاهكم رذيلة الكذب في وضح النهار إن الواقع بأسره موجود بين أيديكم.

فماذا يفعل المواطن الليبي باسم «الدين»؟

يقرأ آيات القرآن على رؤوس الموتى، ويقيم الحضرة على أرواحهم، ويكتري الشحاذين لكي ينقذوهم من ذنوبهم بالأوراد الدينية، ويذبح لهم النعاج في المأتم من باب الرغبة في التصدق عليهم.

هذا كله يحدث عندنا طبقًا لنظرية مؤداها إن «الأحياء» يستطيعون أن «يرحموا» موتاهم بالصدقات وقراءة الفاتحة.

Twitter: @alqareah

والنظرية بالطبع ليس لها سند حقيقي في الإسلام الذي يقرر بوضوح إن أحدًا لا يستطيع أن ينقذ أحدًا، وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، وإن «الصدقة» ليست ثمنًا لشراء الجنة بل مظهرًا من مظاهر الطاعة الكلية تجاه الله التي يبديها «الأحياء» من أجل أنفسهم وقبل أن يموتوا بزمن طويل أيضًا، وليست مجرد محاولة أخيرة لإنقاذ رجل ميت.

الصدقة واجب الاحياء وليست رشوة من أجل الموتى. هذه فكرة القرآن الخالية من الشوائب، ولكن مفهومات الثقافات السائدة في شمال افريقيا، وبالذات الثقافات الوثنية التي تبنت حيلة «القربان والنذر» لإنقاذ الموتى من غضب أصنامهم هي التي تقف مسؤولة عما يحدث الآن في ليبيا باسم عقيدتنا نفسها من دفوف العيساوية البلهاء وسط البخور المتصاعد في حلقة الحضرة إلى فرقة «القراية»(*) والحج نيابة عن الموتى ومذبحة النعاج في المآتم وتأجير الشحاذين لقراءة القرآن على القبور وبقية حيل ثقافتنا غير الواعية.

وأنا استعمل كلمة «حيل» لأنني أريد أن أشير هنا إلى أن فكرة «انقاذ الموتى بصدقات الاحياء» لم تنبع في الواقع من تعاليم الإسلام بل نبعت من سوء تفسير هذه التعاليم بواسطة الهيئات شبه الدينية التى كانت تكسب لقمة عيشها ببيع كلمات الله للمواطن الأمي واستغلال مشاعر حزنه على موتاه في دفع أجرة الحضرة وفرقة القراية.

(*) القرّاية: تعبير محلي في بنغازي يطلق على من يقومون بقراءة القرآن الكريم في الوفيات وبعض المناسبات الأخرى.

Twitter: @alqareah

فالدين في جميع الثقافات البدائية حرفة لكسب العيش مثل أي حرفة أخرى، وليس ثمة حقيقة أكثر وضوحًا من هذه الحقيقة في تاريخ الأديان بأسره، ونزول الكتب السماوية. لم يستطع أن يغير المفهوم المحلي لكلمة الدين في أي مكان، لأن النص الديني نفسه وقع فريسة «المحترفين» القدماء خلال عمليات التفسير والإضافة ولأن التفسير خاضع بطبيعته لمحصول الفكر السائد في المنطقة.

إنها حلقة شبه مفرغة فالنص الديني يأتي من السماء لكي يعمل على تغيير ملامح الثقافة السائدة، ولكن المحترفين يقومون بتفسيره عن طريق مفهومات هذه الثقافة نفسها كما يحاول المرء أن يغسل ثوبه من الوحل بمزيد من الوحل. والنتيجة المتوقعة بالطبع أن يلبس النص الديني قناع الأفكار السائدة ويصبح سلاحًا في يدها الممدودة لسرقة قوت المواطنين.

والمرء فى ليبيا لا يحتاج إلى البحث عن تفاصيل هذه الحقيقة، ولا يحتاج أيضا ألى الاكتفاء بالاشارة إلى فكرة القرابين والبيوض(*) التي تكمن دائمًا وراء حيل الهيئات شبه الدينية. إن اللعبة بأسرها متمثلة على سطح ثقافتنا الحالية مثل بقعة هائلة من الزيت المحروق على وجه المياه. والمواطن المسلم عندنا يعيش في وضح النهار فكرة غير إسلامية تقسم العالم إلى ثلاث وحدات:

1- الوحدة الأولى غير مرئية ولكنها متسمة بالنية الشريرة

(*) البيوض: النذور.

Twitter: @alqareah

وتضم في داخلها ملوك الجن والسحرة وأمراض الحسد والأصابة بالعين والرصيدة.

2- الوحدة الثانية غير مرئية أيضا ولكنها ليست متسمة بالنية الشريرة بل بالرغبة في معونة المواطن ضد عصابة الوحدة الماضية وتضم في داخلها الاحجبة والقرابين والمنجمين وخيار الفقهاء والدراويش والمرابطين. وأنا استعمل كلمة «غير مرئية» بمثابة أشارة إلى أن هذه الطائفة من محترفي الدين تستمد نفوذها من عالم سحري مقام على أكتاف خدام الجن وبركات الاحجبة الغامضة.

3- الوحدة الثالثة هي ليبيا الحقيقية التي تبدو عبر ثقافتنا المعاصرة مجرد قطعة من الأرض تضم المواطن الليبي وقبيلته بالإضافة إلى القبائل الاخرى مثل أي رقعة شطرنج مقسمة بالتساوي بين الفيل والحصان والقلعة والوزير..

ولعل من المدهش أن يكتشف المرء أن المواطن عندنا ـ الذي يعيش في ليبيا ويكسب فيها قوت عياله ـ لا تبدو ليبيا كلها بالنسبة له سوى ثلث عالمه الحقيقي، فيما يتكون ثلثا عالمه الباقي من عفاريت الجن وشياطين الحسد والسحرة والمرابطين، ولكن الأمر في الواقع لا يدعو إلى الدهشة. فواقع الحياة في بلدنا يتجه أيضًا في نفس الاتجاه، ويقسم طاقات المواطن إلى ثلاثة أجزاء غير متساوية، يذهب أصغر جزء منها إلى ظاهرة الكفاح اليومي من أجل لقمة العيش. ويضيع الجزءان الباقيان في النضال اليائس ضد عقدنا النفسية ومخلفات فكرنا المشوش وفخاخ الثقافة السائدة في المنطقة.

Twitter: @alqareah

وإذا كان ثمة مثال واضح لهذه الحقيقة غير المبهجة، فإن المرء يستطيع أن يلتقطه من أرصفة شوارعنا دون أن يضطر إلى الانحناء. ففكرة الوقاية من الحسد وحدها تملك فى ليبيا جميع الطواطم التالية: «الحوتة، القرون الذهبية، الخميسة، نعل الحصان، بيضة الخميس، ختمة سيدنا سليمان، الأحجبة، الوشمة، البوسمة من نعجة العيد، الخميرة، الحصن»(*) وبالطبع أيضا بعض الأشعار مثل عين الحسود فيهاعود، وبعض الأسماء المتناهية القبح التي يختاره الأبوان لأطفالهما لكي يدفعها عنهم شر العين إلى جانب وضع النقاط الخضراء فوق أنوفهم أو تحت ذقونهم».

هذا كله لدفع شيطان الحسد وحده.

أما بقية الشياطين الكبار فإن المرء يحتاج بالطبع إلى مجموعة هائلة من الطقوس الخاصة لاستمالة ودهم أو على الأقل لتجميد نشاطهم الإرهابي والطقوس تتباين من ذبح الخرفان على قبور الأولياء الصالحين خلال موسم الزيارات الدموية إلى الاكتفاء برشوة فقي المنطقة الطويل اليد بأربع بيضات، وكيلة من الشعير في يوم عاشوراء.

فهل كان الدين نبراسًا على طريق الانسان؟.

(*) الحوته، القرون، نعل الحصان، بيضة الخميس، ختمة سيدنا سليمان، الأحجبة، الوشمة، البوسمّة من نعجة العيد، الخميسة، الحصن»:
معتقدات شعبية ذات جذور موغلة في القدم. وهي تعني في بعضها الوقاية من الحسد والعين، وكتابة التمائم، والتحصن ضد الجان وبقية الخوارق. والبوسمّة: قطعة الطحال وكانت تلصق على جدار المنزل بمجرد ذبح ضحية العيد، كنوع من الاعتقاد للوقاية من أي أثر للعين أو الحسد.
وهذه المعتقدات تكاد تقارب نفس المعتقدات في بعض مناطق الوطن العربي.

Twitter: @alqareah

شيخ المحلة يستطيع أن يمنحنا إجابة تليق بالمقام مقابل قليل من «البيوض»، إذا كنا نحتاج حقًا إلى إجابة مرضية لغرورنا، أما إذا كنا نبحث عن شيء آخر أقرب إلى الحق والمنطق من مجرد إرضاء الغرور، فإننا في الواقع مضطرون - رغم كل النوايا الحسنة - لأن نترك شيخ المحلة يتشقلب على رأسه فوق المنبر ونعترف لأنفسنا بأن الدين - في جميع الثقافات وجميع العصور - نصوص لغوية خاضعة للتفسيرات السائدة، وأن التفسيرات لم تكن قط بريئة من شوائب الجهل وضيق الأفق وقصور المعرفة الانسانية.

فإذا كان ثمة طريق إلى الخارج فإنه يبدأ بالضبط عند تنقية هذه التفسيرات من فضائح ثقافتها المتخلفة، ومواجهتها بالمنطق الصارم الذي يستطيع أن يعيد الشيطان والجن وعصابات العالم السفلي إلى المتحف، ويستطيع أن يحشر شيخ المحلة في عين الإبرة لكي يتركه يختنق بأشعاره أو يلتزم روح العلم ويكف عن حيل الخطابة.

فإذا قرر أن يرفع يديه إلى «السماء» لكي يصب علينا لعناته، فأننا لا يجوز أن نجعله يصيبنا بالخوف أو بالملل، بل لابد أن نواجهه بشجاعة ونطلب منه أمام الله والمواطنين أن «يفسر» لنا كلمة السماء أولاً بعد أن نلفت نظره إلى أن الفضاء الازرق المقام فوق دماغه أصبح الآن في هذا القرن العظيم مجرد فضاء أزرق لا يضم شيئا من اللعنات.

«التفسير بروح العلم والمنطق» هو مفتاح أزمتنا القبيحة.

التفسير القائم على المعرفة الإنسانية المعاصرة، والخالي كلية من الأشعار والمدائح، والخالي أيضا من عدم الوضوح.

Twitter: @alqareah

التفسير الذي يأتي من مصدر عارف وليس من مصدر محترف للجهل هو طريقنا إلى الخارج، وهو أيضًا الضوء الحقيقي على طريق الإنسان.

أما بقية الخطب، وبيع أشعار الدرجة الثانية وتأويل كلمات الله المتناهية العمق بمفهومات الثقافات المتأخرة عن الأرواح الشريرة والقرابين وإنقاذ الموتى على حساب النعاج. أما كسب العيش بحيل الحواة والكتب الصفراء، فإنه ليس نبراسًا على طريق الإنسان بل حرفة روتينية تساندها الأشعار والخطب المميتة مثل حرفة السمسار.

وذلك وحده يصلح سببًا كافيًا لأن يضع قاعدة «تقاليدنا الأصيلة» نفسها في سوق النخاسين.

Twitter: @alqareah

مكتبة النيهوم

سلسلة الدراسات: (5)

الصادق النيهوم كان كاتباً غير عادي، وقد أثارت كتاباته، طيلة حياته، وربما ما تزال في تقديرنا أصداء ستتردد لفترة طويلة. وإحساساً بقيمة هذا الكاتب وعطائه الغزير. بادرت (دار تالة) إلى تجميع نتاج النيهوم المتناثر في عديد الصحف والدوريات، سواء في ليبا أو خارجها. مما لم يسبق إصداره، بعد الاتفاق مع ورثته، ونشره في سلاسل تحوي أعماله كافة ورأت أن تطلق عليها اسم (مكتبة النيهوم).

ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة

(التراث العربي)

نقطة الانطلاق بالنسبة لي أنني مواطن يؤمن بأن الإنسان يصل إلى هذا العالم عارياً وأخرس لأن الله يعرف أنه لا يحتاج إلى عمامة أو قبعة مزينة بالريش ولا يحتاج أيضاً إلى أن يتكلم لغة خاصة أو يميز نفسه بعلامة تجارية مثل علبة السردين .

ذلك كله - بالنسبة لي - مجرد حل اجتماعي تتبناه الجماعات المختلفة - من الناس والقرود والنمل وعجول البحر - على السواء لكي تدبر أمر بقائها في أفضل صيغة ممكنة ، فالجماعة تضع علامتها فوق الإنسان كما تضعها فوق الماشية ، وكما تضعها أيضاً على حدودها الإقليمية لكي تصون وحدتها من جهة ، وتتجنب الفوضى العامة من جهة أخرى . وأنا لا أقول هنا إن هذا الحل الجماعي خطأ أو صواب فالأمر في الواقع لا يتوقف على نوع العلامة التي تحملها البقرة فوق جلدها ، بل يتوقف بالضبط على ما تعطيه البقرة من الحليب . وإذا كانت الحضارة تتورط أحياناً في لعبة للمفاضلة بين علامة معينة وبين بقية العلامات ، مثل مزاعم الرجل الأبيض تجاه الرجال السود ، فإن ذلك عادة مجرد دعاية تجارية ، وهو - دائماً - هراء عنصري .

@ketab_n

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص.ب. 113/5752 ر.ب. 2070 1103 ـ بيروت ـ لبنان
Email: arabdiffusion@hotmail.com